بِنْيَةُ الوَعْظ عند ابن السَّمَّاك

(دراسةٌ سياقـيَّةٌ تحليليَّة)

إعداد

د / محمد شمس كامل عُقاب

قسم اللغة العربية وآدابها ،

كلية الآداب، جامعة الإسكندرية

١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

بنية الوعظ عند ابن السماك – دراسة سياقية تحليلية

محمد شمس كامل عُقاب

قسم اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية– مصر

البريد الإلكتروني: oqap@hotmail.com

الملخص:

ابن السماك محمد بن صَبيح المعروف بواعظ الرشيد أحد أعلام الوعظ في العصر العباسي الأول، اتجه البحث إلىٰ دراسة بنية وعظه من خلال سياقها وتحليلها. فدرس في السياق: حياة ابن السماك ونسبه، وأساتذته وتلاميذه، وأجناس أدبه، ومصادره، وجمهور وعظه. ودرس في التحليل: البناء المعنوي، والبناء الإطاري، والبناء الأسلوبي، والبناء الإيقاعي، وأثر الخطاب، ثم انتهىٰ البحث إلىٰ خاتمة تجمل النتائج.

الكلمات المفتاحية: ابن السماك؛ أدب الوعظ؛ النثر العباسي

The Structure of Preaching by Ibn al-Sammak - An Analytic Contextual Study

Mohammad Shams Kamel Uqab
Department of Arabic Language - Faculty of Arts - Alexandria University-Egypt
Email: oqap@hotmail.com

Abstract:

Ibn al-Sammak Muhammad bin Sabeih, known as the preacher of al-Rashid, one of the flags of preaching in the first Abbasid era. The research aimed to study the structure of his preaching through its context and analysis. We studied in the context: Ibn al-Sammak's life and lineage, his professors and students, the genera of his literature, his sources, and his preaching audience. We studied in the analysis: moral construction, framework construction, stylistic construction, rhythmic construction, and the impact of the speech, then the research ended with a conclusion that summarizes the results.

Keywords: Ibn al-Sammak, Literature of Preaching, Abbasid Prose

مدخَل:

منذ قديم وأنا أرىٰ البحث في أدب الوعظ[1] في نثرنا القديم لم يأخذ حقَّه، منذ عصر الجاهلية الذي لم يُدوَّن سوادُ نثره، ثم في عصره الزَّاهر في عهد النبيِّ صلىٰ الله عليه وسلم وأصحابه، مرورًا بعهد بني أمية الذي وصف بعض الباحثين خطابته بالعصر الذهبي[2]، حتىٰ نصل إلىٰ العصر العبَّاسيّ الذي خفتت فيه الخطابة، ولكن بقيتْ الخطابة الوعظية فيه علىٰ الخصوص علىٰ حظٍّ من الازدهار[3].

وليس هذا مجالَ تَعْداد الأسماء التي أدلتْ بدلوها في هذا اللون الأدبيّ في تلك القرون، ولكنَّا حين نذكرُ أعلام الواعظين نذكرُ علىٰ رأسهم نبيَّنا محمدًا صلىٰ الله عليه وسلم الذي أرسىٰ دعائم الخطابة الإسلامية، ثم سار من بعده أصحابُه علىٰ هَدْيه في ذلك الفنّ، ونذكر من أهم خطباء الوعظ أبا بكرٍ الصدِّيق رضي الله عنه[4]، ونذكرُ الحسنَ البصريَّ وعمر بن عبد العزيز في الدولة الأمويَّة،

---

(١) مرَّ فنُّ الوعظ عند اليونان ثم في أوروبا المسيحية بمراحل مختلفة من التطور، وقد أصبح باكرًا فنًّا من فنون البلاغة، وصار فنًّا خطابيًّا صُنِّفت فيه الكتب، ووُضعتْ له تقنياته ومؤثِّراتُه التي يراعيها الوعاظ علىٰ منابر الكنائس (انظر مادة "فنّ الوعظ Homiletics" في: موسوعة البلاغة، تحرير توماس أ. سلوان، الجزء الثاني ص١٥٤-١٦٢ (ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٦م).

(٢) انظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، للدكتور إحسان النص (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م).

(٣) انظر: الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف ص١٢٦ (دار المعارف، القاهرة، ط١٥/ ٢٠٠٩م).

(٤) انظر في مواعظ أبي بكر وغيره من الصحابة: نثر الصحابة: أغراضه وخصائصه، لمحمد شمس عقاب ص١٠٠ (دار الأمل للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط١/ ٢٠١٦م).

ويذكرُ لنا الدكتور شوقي ضيف من وعّاظ القرن الأول العبّاسي ثلاثةَ نفر: "عمرَو بنَ عُبيدٍ المعتزلي الزاهد المشهور واعظ المنصور، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي، وابنَ السَّمَّاك واعظ الرشيد"(١). وابن السَّمَّاك الواعظ هو بُغيتُنا في هذا البحث.

ولكنه –والحقُّ يُقال– لم يُوجِّه وجهيَ قِبَلَ البحث في ابن السَّمَّاك إلا كلمةٌ للأديب الدِّمشقي علي الطنطاوي نُقِلَتْ عنه في مقدمة كتاب (مختاراتٍ من أدب العرب) للنَّدْوي، يقول فيها: "**ولقد كنتُ أتمنىٰ أن نخرج بتلاميذنا من هذا السجن الضيق المظلم الذي حشرناهم فيه، إلىٰ فضاء الحرية، وإلىٰ ضياء النهار، فلا نقتصرُ في الاختيار علىٰ "وصف الكِتَاب" للجاحظ، وهو جُملٌ مترادفة، لا تؤلف بينها فكرةٌ جامعة، ولا يُمدُّها روح، ولا تُخالطها حياة، وعلىٰ ألاعيب ابن العميد، وغلاظات الصاحب، وهندسات القاضي الفاضل؛ فننفِّر التلاميذ من الأدب، ونُكرِّهه إليهم. وكنا نقول لهم: إنَّ البيان الحق عند غير هؤلاء، وأنَّ أبا حيان التوحيديَّ أكتبُ من الجاحظ؛ وإن كان الجاحظُ أوسعَ روايةً وأكثرَ علمًا، وأشدَّ تصرفًا في فنون القول، وأكبرَ أستاذيةً؛ وأنَّ الحسن البصريَّ أبلغُ منهما، وأنَّ ابنَ السَّمَّاك أبلغُ من الحسن البصريّ**"(٢).

(١) تاريخ الأدب العربي: العصر العباسي الأول، للدكتور شوقي ضيف ص٤٥٣ (مكتبة المعارف، القاهرة، ط٨).

(٢) مختارات من أدب العرب: قسم النثر، لأبي الحسن علي الحسني الندوي ١/ ٥-٦ (تعليق عبد الحفيظ البلياوي، دار ابن كثير، دمشق، ط١/ ١٤٢٠هـ). وأصل الكلام في مقدمة الطنطاوي لكتاب: المسلمون في الهند، لأبي الحسن الندوي ص١٧-١٨ (دار ابن كثير، دمشق، ط١/ ١٤٢٠هـ).

تلك هي العبارةُ التي هدتْني إلىٰ هذا البحث، نقلتُها اعترافًا بالفضل لصاحبها، من غير تأييد أو رفضٍ لما قد حكم به من الأحكام علىٰ الناس في هذا الموضع.

وتلك العبارةُ في نقد قومٍ كالجاحظ، وابن العميد، والصاحب ابن عبَّادٍ، والقاضي الفاضل، وتقديم أبي حيَّان في الكتابة علىٰ الجاحظ، وتقديم الحسن بن أبي الحسن البصريّ عليهما، وتقديم ابن السَّمَّاك علىٰ الحَسَن نفسِه؛ عبارةٌ خطابيَّةٌ من غير شك، وحُكْمٌ مُرسَل، وليس لنا -ولا نحبُّ- أن نقول بمثل هذا النوع من الحُكم؛ فلكُلٍّ من هؤلاء الرجال سَمْتُه، وبين الحَسَن وابن السمَّاك فروقاتٌ في الرُّوح والصَّوْغ تظهر بالمقابلة، وليس هذا مجالَ البحث فيها أيضًا؛ علىٰ أنَّ لابن السَّمَّاك شأنًا رفيعًا في الأدب؛ هو ما حدانا إلىٰ دراسته بعد الاطِّلاع علىٰ أدبه؛ شأنًا يستحقُّ به منَّا أن ننفض الغبار عنه، بعد أن ركد عليه قرونًا من الزمن، سوىٰ من نقلٍ هنا أو نقلٍ هناك.

ثم إنني بحثت في المواد الببليوجرافيَّة المختلفة ونحوها من أدوات البحث والتنقيب، وسألتُ ما وسعني السؤالُ والبحث؛ فلم أجد مَنْ قد خصَّ ابنَ السَّمَّاك بدراسةٍ خاصَّة، ولكنها إشاراتٌ وإلماعات ونقولٌ متفاوتة، لا تصنع تصوُّرًا شاملًا لأركان أدبه الوعظي، وما سرىٰ فيه أو اكتنفه من الخصائص الفنِّيَّة. من أجل هذا عزمتُ علىٰ هذه الدراسة، محاولًا إظهار ما اتَّصفت به بنية الوعظ عنده من سماتٍ في التشكيل والمعنىٰ.

وقد اتخذت خطَّةً في ترتيب هذا البحث على هذا النحو: بدأته بالدراسة السياقيَّة التي اشتملت علىٰ: التعريف بابن السماك: نسبِه وحياتِه،

وأساتذته وتلاميذه، وتنسُّكه وزهده، ثم وقفتْ علىٰ حدود أدبه: أجناسِه، ومصادره، وجمهورِه الذين توجَّه إليهم.

بعد هذا شرعتُ في تحليل بنية الوعظ عند ابن السَّمَّاك، وقسَّمتُ ذلك أربعة أقسام:

❖ فثمة قسم للبناء المعنوي يسعىٰ إلىٰ حصر معاني الرجل، ومحاولات التجديد لديه.

❖ وقسمٌ للبناء الإطاري يشمل: هيكل وعظه، والسِّمات الشفويَّة والكتابيَّة فيه.

❖ ثم قسمٌ للبناء الأسلوبي، دُرستْ فيه أهم الظواهر الأسلوبية عنده، وهي: الألفة اللغوية، والتوليد والنمو، والطباق والمقابلة، والتعجب، والتكرار، وطريقة الأسئلة في الوعظ، والطريقة العقلية، والصورة الفنيَّة.

❖ ثم قسمٌ رابعٌ للبناء الإيقاعي، حلَّلتُ فيه ألوانه المكوِّنة لصورته الموسيقيَّة، وهي تجتمع عنده في: السجع، والتقسيم، والتوازن النَّغميّ.

❖ ثم انتهىٰ التحليل بذيلٍ مكمِّلٍ في أثر خطاب الرجل في متلقِّيه.

❖ وختمتُ البحث بخاتمةٍ تضمُّ أهم النتائج والوصايا.

وقد اتخذت لذلك كله أدوات منهجيَّة: فالدراسة السياقية كانت تعتمد في أكثرها علىٰ (المنهج التاريخي)، ثم دراسة البِنية كانت تعتمد علىٰ (التحليل الفنِّي)، بوصف الظاهرة أولًا، ثم قراءة ما فيها من الخصائص والسِّمات الفنيَّة. وذلك لكي يستطيع البحثُ التبصُّر بالأجزاء المكونة لهذا الأدب فيخلص إلىٰ

أحكام كُليَّةٍ جامعة في كل عنصر من عناصر بنائه، أو كل جزءٍ مستقلٍّ من تلك العناصر.

واخترتُ للبحث بناءً علىٰ ذلك عنوانه: "**بِنْيةُ الوعظ عند ابن السمَّاك: دراسةٌ سياقيَّةٌ تحليليَّة**".

***

أ) السياق:

١ - نَسَبُ ابن السَّمَّاك وحَيَاتُه:

ابنُ السمَّاك هو أبو العباس محمد بن صَبيح[١] العِجْليُّ، مولاهم، الكوفيّ. نعته الذهبي بقوله "الزاهدُ، القدوة، سيِّدُ الوعاظ"[٢]. ونعته أبو نُعيم في (حِلية الأولياء) نعتًا مسجوعًا، فقال: "ومنهم زايد[٣] النساك، وصائد الفتاك، وناصب الشِّبَاك... ابنُ السمَّاك. حدَّد الشَّان، وشدَّد العِيان، فأوضح البيان، وأفصح اللسان"[٤]. فللرجل عند من ترجمه سمتان جليَّتان: الفصاحةُ، والزُّهد.

و(ابنُ السَّمَّاك) لقبٌ له[٥]، وقد ورد في المعاجم تفسيرُه نسبةً لصانع السَّمْك بسكون الميم، وهو السَّقف؛ ولذلك قال الزبيديُّ: "وسَمَّاكٌ كشَدَّاد: جَدُّ

---

(١) صَبِيحٌ: بفتح الصاد (انظر: تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، لابن حجر، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني ٢/ ١٨٢، تحقيق الدكتور إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر، بيروت، ط١/ ١٩٩٦م).

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٨٨-٣٣٠.

(٣) كذا في المطبوعة، ولعلها مصحَّفةٌ من "زاهد".

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نُعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصفهاني ٨/ ٢٠٣-٢٠٤ (دار الفكر، بيروت ١٤١٦هـ). وانظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ٣/ ١٧٤ (حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرَّج أحاديثه دكتور محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٥هـ).

(٥) هناك رجلٌ آخر متأخر لُقِّب بابن السمَّاك كذلك (ت ٤٢٤هـ)، قال ابن كثير: أحمد بن الحسين بن أحمد أبو الحسين الواعظ المعروف بابن السماك، ولد سنة ثلاثين وثلثمائة، وكان يعظ بجامع المنصور وجامع المهدي، ويتكلم علىٰ طريق الصوفية، وقد تكلَّم بعض الأئمة فيه، ونسب إليه الكذب (انظر: البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل ابن عمرو بن كثير الدمشقي ١٢/ ٤٤، حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٩٨٨م).

أبي العباس محمد بن صُبيحٍ [كذا ضُبط بالضم] العابدِ الـمُحَدِّثِ الـمَذْكُور، مولىٰ بني عِجْل، ومُقْتَضىٰ كلام أئمة النَّسَب أنه يُعرف بابنِ السَّمَّاك لا أنَّ جَدَّه سَمَّاكٌ"(١).

فالظاهر من كلامهم أنَّ السمَّاك هذا هو جدُّه، ولا ندري إذ هو لقبٌ له ما اسمُه، بل لعلَّه ألَّا يكون جدَّه أبا أبيه، بل رجلًا فوق ذلك؛ إذ لم تزد المصادرُ علىٰ أن ذكرت أنه "محمد بن صبيح"، ولم يزيدوا علىٰ ذلك شيئًا.

ونحنُ بالـمِثْل لا نعلم عن حياته وأسرته إلا قليلًا، وغايةُ ما بلغنا من ذلك هو اسمُه المقتضبُ هذا، ولدينا إشارةٌ نادرةٌ إلىٰ أنَّ له ولدًا اسمه عبد الله، استخلصنا ذلك من إسناد في صفة الصفوة لابن الجوزي عند ترجمته له، حيث يقول: "أبو الحسين بن علي الفقيه قال: سمعتُ عبد الله بن محمد بن السماك يقول: سمعتُ أبي يقول..." إلخ. فهذه روايةٌ نادرة لولده هذا، لعلها لم توجد في غيره من الكتب.

ولحُسن بيان ابن السمَّاك في وعظه، ذكروا أنه قد جُمِعَ كلامُه وحُفظ، قالُ ابن خَلِّكان: "كان زاهدًا عابدًا، حَسَنَ الكلام، صاحبَ مواعظ، جُمِعَ كلامُه وحُفظ"(٢). وهذا الجمع ليس في كتابٍ مستقلٍّ فيما وقفنا عليه، بل في ترجماته في

(١) انظر مادة: (سمك) في: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي، محمد بن بن محمد بن عبد الرزّاق المرتضىٰ الزبيدي (تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبوعات حكومة الكويت).

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خَلِّكان، أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر ٤/ ٣٠١ (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١/ ١٩٧١م).

كتب التراجم والرَّقائق، وفيما نُقل من مواعظه في الكتب المختلفة. وسوف نذكرُ طائفةً من مصادر وعظه في هذا البحث.

قَدِم هذا الشيخُ الكوفيُّ بغداد لعهد هارون الرشيد، فمكث بها مدة، ثم قفل إلىٰ الكوفة فعاش بها ما بقي من حياته(١)؛ وهارون قد وليَ الخلافة سنة ١٧٠ من الهجرة، وابنُ السمَّاك مات سنة ١٨٣؛ فيكون مقامه ببغداد في حدود هذه السنين، أي عشر سنين تنقصُ قليلًا أو تزيد.

فهو كوفيٌّ إذن وإن أطال المقام ببغداد يعظ الرشيد؛ لأنه ورد في ترجمته أنه مات "وقد أسنَّ"(٢)؛ فعشرُ سنين في عمر رجلٍ قد أسنّ ليستْ كثيرة، فيكون مقامه بالكوفة هو الأصل. وهذا ما ذهب إليه ابن الجوزي إذ قال في ترجمته: "وهو كوفيّ لكنه قدم بغداد فمكث بها مدَّة، ثم عاد إلىٰ الكوفة فتوفي بها سنة ثلاث وثمانين ومئة"(٣).

وفي (الأخبار الموفقيَّات) للزبير بن أبي بكر خبرٌ نادرٌ فيه أنه قدم علىٰ الرشيد في أول شهرٍ ولي فيه الخلافة، شهر رمضان، فعن الزبير قال: "حدثني عمي مصعب بن عبد الله عن جدي عبد الله بن مصعب قال: دخل ابن السماك علىٰ هارون الرشيد حين ولي الخلافة في شهر رمضان..."(٤).

---

(١) انظر: تاريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت ٣/ ٣٤٧ (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز ٨/ ٣٣٠ (تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٥هـ).

(٣) انظر: صفة الصفوة ٣/ ١٧٧.

(٤) الأخبار الموفقيَّات، للزبير بن بكار القرشي ص١٦٨ (اختار النصوص وحققها خليل عمران المنصور، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ٢٠٠٥م).

وقد نقلتْ الكتبُ كثرةَ مواعظه للخليفة هارون الرشيد، ما حدا بالدكتور شوقي ضيف أن ينعته بـ(واعظ الرَّشيد)[١]، جاعلًا إياه ثالثَ ثلاثة من أعلام خُطباء الوعظ في العصر العبَّاسي الأول[٢].

لم يذكر الرواة متىٰ ولد ابنُ السمَّاك، ولكن نقلوا أنه توفي وقد أسنَّ كما مرّ[٣]. أي أنه ولد في آخر القرن الأول أو مطالع القرن الثاني، فهو علىٰ كل حالٍ من رجالات القرن الثاني، صدرِ دولة بني العباس القويِّ: حُكْمًا وعلومًا وأدبًا.

٢- أساتذته وتلامذتُه:

إنْ لم نكن قد عرفنا كثيرًا عن أسرة ابن السمَّاك وقومه من بني نسبه، فإنَّه في العلم والرواية معروف مذكور؛ فقد أسند في رواية الحديث عن عدَّة من التابعين كما يذكر الحافظ أبو نُعيم، منهم: إسماعيل بن أبي خالد، والأعمش، وهشام بن عروة[٤]. وروىٰ عن آخرين منهم: العوام بن حوشب[٥]، وعنبسة بن عبد الرحمن[٦]، والهيثم بن حماد[٧]. ولم يُكْثر من رواية الحديث[٨].

ومما يدلُّ علىٰ مكانة الأستاذ مكانةُ تلاميذه ومَنْ روىٰ عنه، وقد كان لابن السماك تلاميذ من أهل الشأن في التاريخ والعلم؛ فمن أكبر هؤلاء، بل هو مريده

---

(١) انظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، للدكتور شوقي ضيف ص٤٥٣.

(٢) هم: عمرو بن عُبيد المعتزلي واعظ المنصور، وصالح بن عبد الجليل واعظ المهدي، وابن السمّاك واعظ الرشيد (انظر: العصر العباسي الأول ص٤٥٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٣٠.

(٤) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢١١.

(٥) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢١٣.

(٦) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢١٤.

(٧) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢١٦. وقد تصحَّف فيه إلىٰ: "الهيثمي".

(٨) انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٢٨.

الأكبر الخليفة هارون الرَّشيد (١٤٩-١٩٣ هـ) من غير ريب، وعبد الملك بن قُريب الأصمعيّ (١٢١-٢١٦ هـ)[١] الإمام العلَّامة، ويحيىٰ بن خالد البرمكيّ (١٢٠-١٩٠ هـ)[٢] الوزير الكاتب، والإمام المحدِّث عبد الله بن صالح العجلي (١٤١-٢١١ هـ)[٣].

وحدَّثَ عنه جماعةٌ من أصحاب الحديث، منهم: يحيىٰ بن يحيىٰ، وأحمد ابن حنبل، ويحيىٰ بن أيوب العابد، ومحمد بن عبد الله بن نمير، وآخرون[٤].

ورویٰ عنه مواعظَه علىٰ الخصوص طائفةٌ آخرون، ممن حصرناهم منهم في كتاب (الحِلية) وحده: إبراهيم بن رجاء[٥]، وإبراهيم بن سلمة الشعبي[٦]، ومحمد بن سعيد الأصبهاني[٧]، وعبَّاد بن كُليب[٨]، وزهير بن عباد[٩]، وإسماعيل بن إبراهيم بن سحيم النامي[١٠]، وعبد الله بن أبي الحواري[١١]، وعلي ابن الجعد[١٢].

---

(١) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٢) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٣) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٢٨-٣٣٠.

(٥) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

(٦) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٧) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٨) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٩) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٧.

(١٠) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

(١١) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

(١٢) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢١٠.

فهؤلاء رجالاتٌ مختلفو المشارب، قد عرفوا للرجل فضلَه وعلمَه؛ فأحبُّوا أن يسمعوا منه، أو يأخذوا عنه. لقد تلقىٰ الناسُ مواعظ ابن السمَّاك وروَوْها، وروَوْا أخباره؛ لِمَا بلغه من الشأن في هذا الفنّ؛ ولعلَّ اتصاله بالرشيد كان سببًا كبيرًا من أسباب ذلك الأمر.

٣- تنسُّكه وزُهْدُه:

ابن السمّاك من أعلام الزهد في وقته، وربما يُسْلك في المتصوِّفين، ومع ذلك لا نستطيع إدراج اسمه في مذهب (الصُّوفيَّة) علىٰ طريقة المتأخرين؛ ذلك أنَّ حركة الزهد في القرنين الأول والثاني "هي مرحلةٌ سابقةٌ علىٰ التصوف بمعناه الدقيق"[(١)]، نعني التصوف الذي استقرت أصولُه، واستبانتْ معالـمُه، وشُهرتْ رجالاتُه وطرقُه.

وفي هذا الصدد يرىٰ نيكلسون أنَّ كثيرًا من المسلمين الذين أطلقوا علىٰ أنفسهم اسم الصوفية من أبناء القرنين الثاني والثالث، لم يكونوا في الحقيقة إلا زُهَّادًا علىٰ حظٍّ قليلٍ جدًّا من التصوف[(٢)].

ونحن نعلم أنَّ ابن السمَّاك قد عاش حياته كلَّها أو جُلَّها في القرن الثاني فقد مات سنة ١٨٣هـ؛ إنه إذن من أبناء تلك الطبقة من الزُّهاد أصحاب المسحة الصوفية، المتصوفة علىٰ التحقيق.

---

(١) مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي، لأبو الوفا الغنيمي التفتازاني، صفحة د من المقدمة (دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣).

(٢) في التصوف الإسلامي وتاريخه، لرينولد نيكلسون ص٤٨ (ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي، القاهرة ١٩٤٧م). وانظر أيضًا: الصوفية في الإسلام، لرينولد نيكلسون ص١٢ (ترجمه وعلق عليه نور الدين شرّيبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢/ ٢٠٠٢م).

وإذا كان نيكلسون يصف هؤلاء الزهاد من أصحاب القرنين بـ(الصوفيَّة الأولين) أحيانًا؛ "فإنَّ من الأدقّ عدم إطلاق اسم الصوفية علىٰ زهاد المسلمين حتىٰ أواخر القرن الثاني، ونؤثر أن نُطْلق عليهم ما أطلقته المصادر العربية القديمة من تسميات: كالزُّهَّاد، والعُبَّاد، والنُّسَّاك، والقُرَّاء، وما إلىٰ ذلك"(١).

وبالمثل نجد بعض المؤرِّخين للتصوف يتوسعون في هذا الجانب، فيجعلون هذين القرنين الأوَّلين حاوييْن للطبقات الأولىٰ من طبقات الصوفيَّة؛ من قبيل أنها المدَّة الممهِّدة لظهور التصوف بمعناه الدَّقيق في الإسلام(٢).

وقد أنكر ابن الجوزيّ علىٰ أبي نُعيم صنيعَه في كتاب (حِلْية الأولياء) من ذكر طائفةٍ من المتقدمين تحت اسم المتصوفة، وجعل ذلك من الأشياء التي "تكدَّر" بها الكتابُ -كما عبَّر(٣)- فعدَّها، حتىٰ قال: "والسابع: إضافة التصوف

---

(١) مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي، لأبو الوفا الغنيمي التفتازاني ص ٩١.

(٢) انظر علىٰ سبيل المثال: تاريخ التصوف في الإسلام من البداية حتىٰ نهاية القرن الثاني، للدكتور عبد الرحمن بدوي وكالة المطبوعات، الكويت، ط١/ ١٩٧٥م)، فقد كانت بذور التصوف ناشئةً منذ عهد الصحابة رضي الله عنهم. وهذا تجوُّزٌ في العبارة، إنما هو (الزهد) في تلك الأيام. ويبدأ السلميُّ الطبقة الأولىٰ في كتابه الشهير (طبقات الصوفية) بترجمة الفضيل بن عياض المتوفىٰ سنة ١٨٧هـ (انظر: طبقات الصوفية، لمحمد بن الحسين السلمي ص٢٢، حققه وعلق عليه مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٤٢٤هـ)؛ وهو من رجال تلك المرحلة الممهِّدة.

(٣) صفة الصفوة ١/ ٢١. وابن الجوزي يذكر هذا في معرض حديثه عن مواطن الخلل في كتاب أبي نُعيم، والأسباب التي أدتْه إلىٰ وضع كتابه، وهو كلام لا يخلو من شدّة، واستنقاص من شأن كتاب أبي نُعيم، وهو كتابٌ جليل القدر، ومرجعٌ أصيلٌ، بل إنَّ ابن الجوزيَّ اعتمده في كتابه، مع شيء من التنميق والحذف؛ وترجمة ابن السمَّاك عندنا دليلٌ

إلىٰ كبار السادات، كأبي بكر وعمر وعثمان وعليّ، والحسن وشُريح وسفيان وشعبة ومالك والشافعي وأحمد؛ وليس عند هؤلاء القوم خبرٌ من التصوف"[1].

ثم أخذ في تفنيد ما قد يُعارَض به، أو يُورَد عليه، فقال: "فإن قال قائل: إنما عنىٰ به الزُّهدَ في الدنيا، وهؤلاء زهاد، قلنا: التصوف مذهب معروف عند أصحابه، لا يُقتصر فيه علىٰ الزهد، بل له صفات وأخلاق يعرفها أربابه، ولولا أنه أمرٌ زِيدَ علىٰ الزهد ما نُقِل عن هؤلاء المذكورين ذمَّه..."، ثم ذكر طائفةً ممن ذَمَّه[2].

إننا لا نكاد نلمسُ في كلام ابن السماك شيئًا من مصطلحات الصوفية المتأخِّرة بعد القرن الثاني[3]، ولا هو ادَّعىٰ طريقةً أو مذهبًا ينتسب إليه في عظاته. إنه من أولئك الواعظين الزُّهاد الناهلين من المعين الأول، مع إعمال عقل، وطريقةٍ مخصوصةٍ في السَّبك، لا علىٰ مذهب الصوفيَّة.

علىٰ ذلك إذا نحن قابلنا الكتابين، فإنه يظهر أن ابن الجوزي لم يخرج عنه، بل إنه يسوق كلام أبي نُعيم بألفاظه، ويسوق بعضَ ما انتقده عليه من ذِكْر الأسانيد التي أسندها صاحبُ الترجمة ونحو ذلك.

(١) صفة الصفوة ١/ ٢٥.

(٢) صفة الصفوة ١/ ٢٥.

(٣) كالحكمة، والنُّور، والعِشق، والعدم، والفناء، والكشف، والحقيقة، والمريد، والطريق (انظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تأليف آنا ماري شيمل ص٧-٨ (ترجمة محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) - بغداد ٢٠٠٦م). وليس هذا مقام التفريق بين ألوان الصوفية ومدارسهم، واختلاف مصطلحاتهم وألفاظهم طبقًا لذلك.

لقد ترجم أبو نُعيم في (الحِلْيةِ) لنفرٍ من أولئك المتقدِّمين وسمَّاهم (المتصوِّفة) علىٰ مذهب المتوسِّعين في التسمية، ولكنَّ الذي يعنينا في هذا البحث نعتُه للذين سيشتمل عليهم كتابُه، وابنُ السماك منهم، يقول في فاتحته: "وأجبتك إلىٰ ما ابتغيت من جمع كتابٍ يتضمَّن أسامي جماعةٍ وبعضَ أحاديثهم وكلامهم، من أعلام المتحقِّقين(١) من المتصوِّفة وأئمتهم، وترتيب طبقاتهم من النُّسَّاك ومحجَّتهم، من قَرْن الصحابة والتابعين وتابعيهم ومَنْ بعدهم، ممن عرف الحقائق، وباشر الأحوال والطرائق، وساكن الرياض والحدائق، وفارق العوارض والعلائق، وتبرَّأ من المتنطِّعين والمتعمِّقين، ومن أهل الدعاوىٰ من المتسوفين، ومن الكسالىٰ والمتثبطين، المتشبِّهين بهم في اللباس والمقال، والمخالفين لهم في العقيدة والفعال"(٢).

فكتابه في ذكر هؤلاء الصالحين من الزاهدين، لا من يتشبَّه بهم ويدَّعي أنه منهم، إنَّ ابن السمَّاك عنده إذن من أصحاب المنهج السَّويّ، والطريقة الحميدة في التصوف، أو إن شئت فقل: في الزُّهد والتنسُّك، وليس من أولئك القوم الذين حاربهم هذا المحدِّثُ والعلماءُ في عصره، وفيهم يقول: "وذلك لما بلغك من بسط لساننا ولسان أهل الفقه والآثار في القُطر والأمصار، في المنتسبين إليهم من الفسقة والفُجَّار، والمباحيَّة والحُلوليَّة الكفار"(٣).

(١) أي مَنْ هم من أهل الحقيقة، وهو لفظٌ ورد غير مرَّةٍ عند أبي نُعيم.

(٢) حلية الأولياء ١/ ٣-٤.

(٣) حلية الأولياء ١/ ٤.

ثم يذكر أنَّ هؤلاء الأدعياء لا يلتبسون بالصادقين، بل للصادقين من الزاهدين فضلُهم ومكانتُهم، وإخراجُ هؤلاء من بينهم والنكيرُ عليهم مُبْرئٌ إياهم من آثام أولئك، يقول: "وليس ما حلَّ بالكَذَبة من الوقيعة والإنكار؛ بقادحٍ في منقبة البررة الأخيار، وواضعٍ من درجة الصفوة الأبرار، بل في إظهار البراءة من الكذَّابين، والنكير علىٰ الخونة الباطلين؛ نَزَاهَةً للصادقين، ورفعة للمتحققِّين"(١).

لقد رُضي مذهبُ ابن السمَّاك في الزُّهد، ورُضيتْ طريقتُه عند العلماء والمحدِّثين، فهو إليهم أقرب، من حيث إنه زاهد يستقي من مصادر الشريعة مباشرةً، من غير تأويل أو استبطانٍ أو رمز.

ورُضيتْ طريقتُه وعُرف بالصلاح عند عامة القوم، وخاصَّتهم، نضرب لذلك مثلًا ما رواه محمد بن بكار قال: "بعث هارون الرشيد الىٰ ابن السماك، فدخل وعنده يحيىٰ بن خالد البرمكي فقال يحيىٰ: إنَّ أمير المؤمنين أرسل إليك لِما بلغه من صلاح حالك في نفسك، وكثرةِ ذكرك لربِّك عز وجل، ودعائك للعامة. فقال ابن السماك: "أمَّا ما بلغ أمير المؤمنين من صلاحنا في أنفسنا فذلك بستر الله علينا، فلو اطَّلع الناس علىٰ ذنب من ذنوبنا لما أقدم قلبٌ لنا علىٰ مودَّة، ولا جرىٰ لسانٌ لنا بـمِدحة، وإني لأخاف أن أكون بالسِّتر مغرورا، وبـمدح الناس مفتونا، وإني لأخاف أن أهلك بهما، وبقلة الشكر عليهما""(٢).

---

(١) حلية الأولياء ١/ ٤.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

٤- أجْناسُ أدَبِه:

ابنُ السَّمَّاك رجلٌ واعظٌ، ولكنَّ وعظَه ذو ديباجة وصناعة، فهو أديبٌ في وعظه، يستعمل لغته وأدبَه كي يؤثِّر في المخاطبين؛ استعمالًا واعيًا ومقصودًا.

وجُملةُ ما بلغنا من أدبه يدخل في ألوان النثر، ولكنْ عُزيتْ بعضُ الأبيات المنظومة في الوعظ إليه، عَزْوَ تمريضٍ لا عزو توثُّق؛ فقد جاء في تفسير الثَّعْلبي (ت ٤٢٧هـ): "عن إبراهيم بن الأشعث قال: قيل للفُضَيل بن عِياض: لو أقامك الله سبحانه وتعالىٰ يوم القيامة بين يديه فقال: ما غرَّك بربِّك الكريم، ماذا كنت تقول؟ قال: أقول: غرَّني سُتُورك الـمُرْخاة. نَظَمَهُ محمد بن السَّمَّاك فقال:

يَا كَاتِمَ الذَّنْبِ أَمَا تَسْتَحِي ... اللهُ فِي الخَلْوَةِ ثَانِيكَا

غَرَّكَ مِنْ رَبِّكَ إِمْهَالُهُ ... وَسِتْرُه طُولَ مَسَاوِيكَا"[1]

وقيل: إنه تمثَّل به[2].

ومما نُسب إليه هذه الأبيات:

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثَّعلبي، أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري ١٤٦/١٠ (تحقيق أبي محمد علي بن عاشور، مراجعة وتدقيق نظير الساعدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ).

(٢) انظر: التوبة، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي ص١٠. تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، مصر).

يـا أيُّهـا الرَّجُـلُ الـمُعَلِّمُ غَيْـرَه هَـــلَّا لِنَفْسِـــكَ كَــــانَ ذَا التَّعْلِــيمُ
تَصِفُ الدَّوَاءَ من السَّقَامِ لِذِي الضَّنَا كَيْمَـــا يَصِـــحَّ بِـــهِ وَأَنْـــتَ سَـــقِيمُ
وأَرَاكَ تَلْقَـــحُ بِالرَّشَـــادِ عُقُولَنَـــا نُصْـــحًا وَأَنْـــتَ مِـــنَ الرَّشَـــادِ عَـــدِيمُ[1]

وقد نُسب إلىٰ غيره[2]، وهو الأقرب؛ إذ نُقِلَ في خبر موته أنَّه دُفعت إليه هذه الأبيات في رُقْعة، فلما قرأها مرض مرضًا شديدًا تُوفي منه، رحمه الله[3].

فالرجل علىٰ هذا ليس بشاعرٍ قطّ، وإنما فَنُّه الأدبيُّ هو النَّثر. وهو نثرٌ داخل ضمن أبواب الرقائق والزُّهد والأخلاق والتزكية.

وأمَّا من حيث نوعيَّة النثر؛ فإنَّ نَثْرَه نوعان: نثرٌ شفويٌّ، وهو جُلُّ ما رُوي إلينا عنه، ونثرٌ كِتابيٌّ، وهو أقلّ، ويغلب عليه طابَع الشَّفوية مع ذلك.

٥- مَصَادرُ أدبه:

لابن السمَّاك أدبٌ وعظيٌّ وافرٌ مأثورٌ عنه، مُوزَّعٌ ما بين: خُطَبٍ، ووصايا، وأقوال، ورسائل مكتوبة. وهو يقع في أربعة أنواعٍ من المصادر:

---

(١) تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، لابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي ٣٤/ ١٥٩ (تحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥م).

(٢) نُسب إلىٰ عبد الله بن عروة في: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي ١/ ٦٧٣ (تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١/ ١٤١٤هـ).

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخراساني ٣/ ٣٢٥ (تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض ط١/ ١٤٢٣هـ).

النوع الأول: كتب الزُّهد والرَّقائق، ويدخل فيها -تَبَعًا- كتبُ تراجم الزُّهاد والواعظين.

والنوع الثاني: كتب الآداب والسلوك.

والنوع الثالث: الأبواب التي عقدها أصحابها لمعاني الزهد والرقائق من كتبهم.

والنوع الرابع: كتب التاريخ والرِّجال والأخبار.

فمن أمثلة النوع الأول، وهو الكتب المختصَّة بالرَّقائق والتَّذكير: كتبُ ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) الواعظ المشتغل بالوعظ، في كتابه (صِفَة الصَّفوة)[١]، وفي غيره من الكتب التي صنَّفها في الرَّقائق مثل: (بُستان العارفين)[٢]، وكتاب (القُصَّاص والمذكِّرين)[٣]. ومثل كتاب (التوبة)[٤] وكتاب (الصبر والثواب عليه) كلاهما لابن أبي الدنيا (ت ٢٨١هـ). وكتاب (الزُّهد وصفة الزاهدين) لابن

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (حققه وعلق عليه محمود فاخوري، وخرّج أحاديثه دكتور محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٥هـ).

(٢) بستان الواعظين ورياض السامعين،لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي (تحقيق أيمن البحيري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٢/ ١٤١٩هـ).

(٣) القُصّاص والمذكرين، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي (تحقيق الدكتور محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٩هـ).

(٤) انظر: التوبة، لابن أبي الدنيا ص١٠.

الأعرابي (ت ٣٤٠هـ)[١]. وكتاب (التخويف من النَّار) لابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)[٢].

وهناك كتبٌ أخرىٰ من كتب الآداب، آداب النفس وآداب الحُكم؛ نقلت من مواعظه -وهو النوع الثاني من المصادر- من مثل: (أدب الدين والدنيا) للماوردي (ت ٤٥٠هـ)[٣]، و(سراج الملوك) للطَّرْطوشي (ت ٤٥١هـ)[٤]، و(الآداب الشرعية) لابن مُفلح (ت ٧٦٣هـ)[٥].

وأما النوع الثالث من المصادر، وهو المصادر ذات الفنون المنوَّعة، فمن مثل: (العِقْد الفريد) لابن عبد ربِّه (ت ٣٢٨هـ)[٦]، و(المجالسة وجواهر العِلْم) للدِّينَوَري (ت ٣٣٣هـ)[٧].

---

(١) الزهد وصفة الزاهدين، لابن الأعرابي، أبي سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر (تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١/ ١٤٠٨هـ).

(٢) التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب، أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (مكتبة دار البيان، دمشق، ط١/ ١٣٩٩).

(٣) أدب الدين والدنيا، للماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب (دار المنهاج، جدة ١٤٣٤هـ).

(٤) سراج الملوك، للطرطوشي، أبي بكر محمد بن الوليد الفِهْري (حققه محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١/ ١٤١٤هـ).

(٥) الآداب الشرعية، لابن مُفلح، عبد الله محمد بن مفلح المقدسي (تحقيق شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٤١٩هـ).

(٦) العقد الفريد، لابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٤هـ).

(٧) المجالسة وجواهر العلم، للدِّينوري، أبي بكر أحمد بن مروان بن محمد المالكي (تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٩هـ).

وأما النوع الرابع، وهو كتب التاريخ والرجال والأخبار، فنضرب مثلًا به: (تاريخ مدينة السلام)، المشهور بتاريخ بغداد للخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ)[1]، و(تاريخ الإسلام) للذهبي (ت٧٤٨هـ)[2]. و(الأخبار الموفقيَّات) للزبير بن بكار (ت ٢٥٦هـ)[3].

لكنْ لعلَّ أكبر كتابٍ جمع من أدبه الوعظيِّ المقدار الأكبر هو كتاب (حِلْية الأولياء وطبقات الأصفياء) لأبي نُعيمٍ الأصفهاني (ت ٤٣٠هـ)[4]؛ فقد نقل في ترجمته ما يربو علىٰ ستين خبرًا عنه، مليئةً بهذه المواعظ، ولم يكتفِ أبو نُعيمٍ بهذه النصوص، بل أورد نصًّا هو أطول نصوص ابن السماك، وهو في رثاء داود الطائي، ولكنه أورده في ترجمة داود[5] وليس في ترجمة ابن السماك.

ويمتاز كتابُ (حلية الأولياء) بذكر الأسانيد عن ابن السمَّاك، وهذا شيءٌ مفيدٌ في معرفة سيرورة النصّ، وتصوُّر مجالس الرجل، وخاصَّةً في النصوص التي اختلفتْ فيها الرواية كما سنمثل له، ومفيدٌ في جمع تلاميذه ومريديه أو من أخذ عنه.

---

(١) تاريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ١٢/ ٣٦٩ وما بعدها (تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي. بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ).

(٣) الأخبار الموفقيَّات، للزبير بن بكار ص١٦٨.

(٤) انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نُعيم الأصفهاني ٨/ ٢٠٣ وما بعدها.

(٥) انظر: حلية الأولياء ٧/ ٣٣٦-٣٣٨.

وهذه الأسانيد لا تُعامل معاملة الأسانيد في علم الحديث من حيث النظر في عدالة الرواة وضبطهم ونحو ذلك، فهذا الشأن حين يكون الرواةُ يروون الحديث، أما في مثل هذه المواعظ فإنَّ الشأن مختلف؛ إذ يكفي إثباتُ النصّ – من غير اختلافٍ- إلىٰ صاحبه لنطمئنَّ إليه، ولكنْ الكلامُ فيما يتعلَّق بضبط النص وتحرير ألفاظه وعبارته.

وقد نقل شيئًا من مواعظ ابن السماك ابنُ الجوزي في كتابه (صفة الصفوة)[1] المهذَّبِ من (الحِلْية)[2].

إنَّ مما تجدر الإشارة إليه في مصادر وعظ ابن السماك اختلاط الرواية في بعض النصوص؛ فقد يُدخَلُ نصٌّ في نصّ، وقد يحدثُ شيءٌ من التصحيف والتحريف والغلط والسَّهو في النقل، ونحو هذا، وكل ذلك مؤثِّرٌ لا محالةَ في سلامة النصّ.

ولكنَّ هذا الذي نذكره من اختلاط الرواية ليس عامًّا في كل نصوصه، بل نصوصه يغلب عليها السلامة إلا من شيء من التصحيف أو التحريف الذي يمكن إقامتُه، وسببه النِّساخةُ وتعاقبُ الأقلام من غير شك.

وإذا شئنا أن نضرب مثلًا لما وقع في بعض نصوص ابن السَّمَّاك من اختلاط الرواية والتبديل فيها، فلعلَّ إجراء مقابلةٍ بين روايتين لنصٍّ واحدٍ يُطلعُنا علىٰ ما قصدنا إليه. هذا النصُّ قد رُوي في (حلية الأولياء) لأبي نُعيم الأصفهاني[3]،

(١) انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي ٣/ ١٧٤ وما بعدها.

(٢) بيَّن ابن الجوزي طريقة اختصاره وتهذيبه للحِلية في مقدمته (انظر: صفة الصفوة ١/ ٢٠).

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

ورُوي في (تاريخ الإسلام) للذهبي[1]؛ وسوف نعارض الروايتين بعضهما علىٰ بعض، ثم نعلِّق علىٰ الأجزاء المختلفة فيهما:

م	رواية حلية الأولياء	رواية تاريخ الإسلام	التعليق
١.	فلا منتبه من نومته	ألا منتبه من نومته	الأولىٰ بالنفي، والثانية بالتنبيه والاستفهام، وهذا أثرُ الرواية الشفوية
٢.	ولا مستيقظ من غفلته	أو مستيقظ من غفلته	الأولىٰ بالنفي، والثانية بالعطف علىٰ الاستفهام
٣.	ولا مفيق من سكرته	ومفيق من سكرته	كالتعليق السابق
٤.	ولا خائف من صرعته	وخائف من صرعته	كالتعليق السابق
٥.	الرحا للدنيا	كدحًا للدنيا كدحًا	يظهر هنا أثرُ التصحيف جدًّا، ونحن نرجِّحُ الرواية الثانية؛ إذ الأولىٰ قد أصابتها عوارضُ النقل في المخطوطات، كالطمس أو السهو من الناسخ
٦.	يجعل للآخرة منك حظّا	أما تجعل للآخرة منك حظًّا	الأولىٰ متمِّةٌ لما قبلها، والثانية تستأنف الكلام بالاستفهام الإنكاري

(١) النصُّ مستخلص من المقابلة بين روايتي: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥، وتاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩.

٧.	أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفف نزلا لهدأ أهوالها	أقسم بالله لو قد رأيت القيامة تخفق بزلزال أهوالها	زيادة "قد" في الثانية. ثم أثر التصحيف الشديد في الجملة الأولىٰ الذي أفسدها، وقد استقامت في الثانية
٨.	وقد علت النار مشرفة علىٰ أهلها...	والنار قد علت مشرفة علىٰ أهلها...	التقديم والتأخير، ما يدلّ علىٰ الرواية الشفوية
٩.	ويكون لك في ذلك الجمع منزل وزلفىٰ	لسرك أن تكون لك في ذلك الجمع منزلة	التغيير في اللفظ، ونقص كلمة "زُلفىٰ" في الثانية، ما يدل علىٰ اختلاف المصدر، وعلىٰ الرواية الشفوية
١٠	أبَعد الدنيا إلىٰ غير الآخرة تنتقل؟! هيهات هيهات، كلا والله	أبعد الدنيا دار محتمل، أم إلىٰ غير الآخرة منتقل هيهات، كلا والله	الاختلاف الشديد في هذا الجزء في الألفاظ: تغييرًا وزيادة، ما يدل علىٰ الرواية الشفوية
١١	ولكن صُمَّت الآذان عن المواعظ، وذهُلت القلوب عن المنافع، فلا المواعظ تنفع، ولا الموعوظ ينتفع بما يسمع	ولكن صُمَّت الآذان عن المواعظ، وذهلت القلوب عن المنافع، فلا الواعظ ينتفع، ولا السامع ينتفع	أثرُ التصحيف واضحٌ في الرواية الثانية، وقد أحدث ركاكةً بتكرار لفظة "ينتفع" في جملتين مسجوعتين، لا يمكن أن ينشئهما ابن السماك علىٰ هذه الصورة؛ فالأولىٰ أجود.

وواضحٌ أنَّ الرواية الشفوية كانت ذات أثر في التغيير الحادث في هذا النصّ، ولا يمكن إنكار هذه الرواية الشفوية، بدليل أنَّ أبا نُعيمٍ ساق إسنادَه فقال: "حدثنا أبي، ثنا أبو الحسن بن أبان، ثنا أبو بكر بن عبيد، حدثني محمد بن سعيد بن الأصبهاني: سمعت ابن السماك يقول في مجلس في آخر كلامه..."[(١)]. فالراوي محمد بن سعيد الأصبهاني نقل النصَّ (سماعًا) عن ابن السمَّاك كما نصَّ عليه بقوله: "سمعتُ"، ولم ينقله عن كتابٍ مكتوب؛ فالظنُّ أنَّ كبيرًا من التغيير في الرواية حدث من هنا، ثم كُتب عنه، وغيَّر فيه النُّسَّاخ بالتصحيف والتحريف والسَّهو، ما شاء الله أن يُغيِّروا.

وأما الذهبيُّ فهو متأخِّرٌ ينقل لا شكَّ عن كتب، ولكنه لم يَبُحْ لنا بالكتاب الذي نقل عنه النصّ[(٢)]، والظنُّ أنه نقله من كتابٍ أصلُ الرواية فيه (سماعٌ) أيضًا في ذلك المجلس الذي ذكره لنا الأصفهانيُّ، والظنُّ أنَّ الروايةَ كانت عن رجلٍ آخر سوىٰ الأصفهانيِّ هذا حضر المجلس، بدليل التقديم والتأخير، وعوارض السماع التي عرضت في تلك الرواية، التي تدلُّ علىٰ أن السامع للرواية لم يكن واحدًا، بل كان غير واحد.

٦- جُمهور وعظِه:

توجَّه ابن السماك بوعظه إلىٰ خلق وجمهورٍ ممن عَرَفْنا وممن لم نعرف، فجملة ما يُروىٰ من غير إشارة إلىٰ صفة الموعوظين أو أسمائهم أو هيئاتهم كثير، ولكنَّه قد أشير في غير موضعٍ إلىٰ شيءٍ من ذلك.

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٢) انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩.

ومعرفةُ المتلقِّي مُفيدةٌ في الفَهَم الفَنِّيِّ لعناصر النَّص؛ إذ المقامُ ذو شأنٍ قديم عند البلاغيين، وهو ذو شأنٍ بالغٍ في العصر الحديث، وقد أضيف عليه لا المتلقي الشاهد الحاضر، بل المتلقي الغائب عن وقت النَّص، حتىٰ لو مرَّت عليه مئاتُ السنين.

فالواعظ الذي يعظُ مَلِكًا، ليس كواعظ المساكين؛ وواعظ المنغمسين في الشراء والبيع، لا كواعظ من دَفن حبيبًا ثم وقف يبكي علىٰ قبره، وهلُمَّ جرًّا.

ولو شئنا تقسيم أهل وعظ صاحبنا من خلال ما رُوي لنا عنه، فإنا سنقسمهم أقسامًا: مَنْ لم تُذكر أعيانُهم ولا صفاتُهم، ومَنْ ذُكرتْ أعيانُهم.

فأمَّا النوعُ الأول -وهو الجمهور غير المعيَّن- فهو كثيرٌ وهو واضحٌ لكل قارئٍ لأخبار الرجل في المصادر، ككتابه إلىٰ أخ له لم يُذكر اسمُه[1]، وكوعظه لقومٍ قد شهدوا جنازةً في القبور[2].

وأما النوع الثاني، وهو مَنْ حُدِّدتْ لنا أسماؤهم وأعيانُهم، فمنهم مثلًا: يحيىٰ بن خالد وزير الرشيد[3].

ومنهم محمد بن الحسن الشيباني (١٣١هـ-١٨٩هـ) ، الإمام صاحبُ أبي حنيفة، فقد كتب إليه ابن السماك حين ولي القضاء بالرَّقَّة يعظه وينصحُه[4]. وهذا يدلُّ علىٰ اتصال الرجل بأعيان عصره من أهل الشأن، وعلىٰ قبولهم منه. وقد نشأ

(١) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) انظر: بستان الواعظين ورياض السامعين ص١٨٦.

(٣) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٤) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

محمد بن الحسن بالكوفة، وأخذ عن أبي حنيفة، ثم رحل بعدُ إلىٰ بغداد، وابنُ السماك كوفيّ، ثم بغداديّ، فلعله كانت بينهما صلةٌ أو مودة في المدينتين أو في إحداهما، وهذا أقربُ إلىٰ الرجحان؛ إذ كيف سيكتب ابنُ السماك إلىٰ رجلٍ لا يعرفُه، كتابًا يعظه فيه.

ومنهم ممن سمعه بالكوفة معروفٌ الكَرخيُّ الزاهد، فعن محمد بن الحسين قال: "سمعت أبي يقول: رأيت معروفًا الكرخي فِي النوم بعد موته، فقلت له: ماذا فعل الله بك؟ فقال: غفر لي. فقلت: بزهدك وورعك؟ فقال: لا، بقبولي موعظة ابن السماك، ولزوم الفقر ومحبتي للفقراء. وموعظة ابن السماك ما قاله معروف: كنت مارًّا بالكوفة، فوفقت علىٰ رجل يقال له ابن السماك وهو يعظ الناس، فقال فِي خلال كلامه: من أعرض عن الله بكُلِّيته أعرض الله عَنْهُ جملة، ومن أقبل علىٰ الله بقلبه أقبل الله برحمته إِلَيْهِ، وأقبل بجميع وجوه الخلق إليه، ومن كان مرة ومرة فالله يرحمه وقتًا ما. فوقع كلامه فِي قلبي، فأقبلت عَلَىٰ الله تعالىٰ، وتركت جَمِيع مَا كنت عَلَيْهِ"(١).

ولكنَّ هارون الرشيد هو أهم رجلٍ معروفٍ توجَّه إليه ابن السماك بالوعظ، فميزانُه يطيش إذا ووزن بغيره، فقد صدق وصف مَن وصف ابن السماك بـ(واعظ الرَّشيد)(٢)؛ إذ اختُصَّ بذلك حقًّا، وكثُر ذلك منه، وطالُ أمدُه.

---

(١) الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري ١/ ٤٣ (تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة).

(٢) انظر: تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، للدكتور شوقي ضيف ص٤٥٣.

إنَّ لهارون الرَّشيد فضلًا علىٰ هذا الشيخ في بعث كثيرٍ من أدبه[1]، وللشيخ –لا ريب– فضلُ الموعظة؛ وهو نفسُه يحدِّثنا عن هارون وكيف كان يُرسل إليه ويسألُه وَعظَه، فربما أصابته لفحةٌ مما يعرضُ للخُلفاء[2]، وللخلفاء أحوال؛ فإنه ينبغي لمن يُصاحبهم ويدخل عليهم أن يكون كَيِّسًا فَطِنًا، فما بالُك بالرجل وهو واعظُ الخليفة، والخليفةُ في أُبَّهته ومُلْكه أقربُ إلىٰ الدنيا، كيف سيقولُ له ما يُفسد عليه حالَه، إنه ليس بـهيِّنٍ من الأمر.

***

(١) يُسمِّي نيكلسون هذا النوع من الفضل للرشيد "فَنَّ الرعاية النبيل"، فيرىٰ أنه جمع من حوله الموهوبين والنابهين: "فالشعراء أبو نُواس وأبو العتاهية ودعبل ومسلم بن الوليد والعباس بن الأحنف، والموسيقار إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق، واللغويون أبو عبيدة والأصمعي والكسائي، والواعظ ابن السمَّاك، والمؤرِّخ الواقدي..." (تاريخ الأدب العباسي، تأليف رينولد. أ. نيكلسون ص٣١ (ترجمة وتحقيق الدكتور صفاء خلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد ١٩٦٧م).

(٢) انظر: شُعب الإيمان ٦/ ٣٦.

(ب) البِنَاءُ المَعْنَوِيّ:

وَعْظُ ابن السمَّاك مستخلص مما استقرَّتْ عليه حال الزُّهاد من الصالحين في عصره، وقد أجمل أبو نُعيم الأصفهانيُّ هذه الحال فحصرها في أربعة أركانٍ، حينما قال: "فمباني المتصوِّفة المتحقِّقةِ في حقائقهم علىٰ أركان أربعة:

١- معرفة الله تعالىٰ، ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله.

٢- ومعرفة النفوس وشرورها ودواعيها.

٣- ومعرفة وساوس العدوِّ ومكائده ومضالِّه.

٤- ومعرفة الدنيا وغرورها وتفنينها وتلوينها، وكيف الاحترازُ منها والتجافي عنها"(١).

وإذا نحن نظرنا في البنية المعنوية لمواعظ ابن السمَّاك ألفيناها لا تخرج في فحواها عن هذه الأركان، ثم يزدادُ ابنُ السمَّاك مزيَّة أخرىٰ في أنه يحاول أحيانًا التجديد في بنية هذه المعانىٰ، ويُعالجُ أمرها بشيءٍ من عملٍ التدبُّر والعقل، فيقدِّمُها بصورةٍ مختلفة.

وسوف نستظهر هنا أهم تلك المعاني، ثم نضع أيدينا علىٰ محاولات التجديد التي حاولها ابن السماك في مواعظه:

١- من معاني الزُّهد عنده وعند غيره من الوعَّاظ: تقديمُ الآخرة علىٰ الدنيا، ومقاومةُ ملاذِّها وشهواتها؛ ومعاندة هوىٰ النفس؛ فذلك يُورثُ الإخلاص لله تعالىٰ والعملَ بما يُرضيه. والإخلاصُ قوةٌ رُوحيَّةٌ تسري في حنايا النفس، فتملؤها عِزَّةً بما تعتقد أو قُل: بما تنتظر، وتمنحُها صبرًا عن الشهوات، وتحمُّلًا

(١) حلية الأولياء ١/ ٢٤.

للمصاعب. وفلسفة أصحاب هذا المذهب مبنيَّةٌ علىٰ أنَّ الآخرة هي الباقية، وما الدنيا إلا فَناءٌ عاجل، أو سرابٌ زائل. يقول: "من رضي الدنيا من الآخرة حظًّا، فقد أخطأ حظَّ نفسِه، والصبرُ علىٰ الدنيا رأس الزهد فيها"(١).

وعلىٰ النقيض، فإنَّ مُقدِّم الدنيا المؤْثِرَ شهواتها، خاسرٌ آخرتَه، غيرَ واجدٍ حلاوتَه، بل سيجد مرارةً في الطَّاعة، يقول في موعظةٍ لهارون الرشيد: "يا أمير المؤمنين، من ذَوَّقتْهُ الدنيا حلاوتَها بركونٍ منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها"(٢). فهو يُحذِّره من ذلك.

إنَّ فكرة مجانبة الدنيا من أجل الظفر بثواب الآخرة واتقاء عذاب النار، هي فكرة متأثّرة بوصايا القرآن والسُّنة، وبالظروف السياسية والاجتماعية السائدة في المجتمع الإسلامي آنذاك، وهي إحدىٰ الخصائص التي يقوم عليها الزهد في القرنين الأول والثاني الهجريين(٣).

٢- ومن معانيه التي تحثُّ علىٰ الزُّهد في الدنيا: أن ترقُّب الآخرة في الدنيا، يُنْجي من الدنيا. وهذا معنًىٰ أوردَه في موعظةٍ له يعظ بها هارون الرشيد، يقول له: "يا أمير المؤمنين، من طلب فِكاك رقبته في مُهْلَةٍ من أجله كان خليقًا أن يُعتق نفسه"(٤). والمهلةُ هي حياة الإنسان في الدنيا.

(١) الزهد وصفة الزاهدين، لابن الأعرابي ص٢٩.

(٢) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

(٣) انظر: مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي، لأبو الوفا الغنيمي التفتازاني ص٩٠.

(٤) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

٣- ومن التزهيد في الدُّنيا: بيان قِصَر الأجل، وقِلَّة الدُّنيا وتصاغرها[١]، يقول: "إنما الدُّنيا أولها إلىٰ آخرها قليل، إنَّ الذي يبقىٰ منها في جنب الذي مضىٰ قليل، وإنَّ ما لَكَ منها قليل، وما بقي قليلٌ من قليل"[٢].

٤- ومن سبل التزهيد في الدنيا أيضًا: تحقيرها؛ كهذه الموعظة التي يخاطب بها هارون الرشيد: "يا أمير المؤمنين، لو مُنع عنك الماءُ ساعةً واحدةً؛ كنتَ تفتديها بالدنيا وما فيها؟ فقال: نعم. فقال له: يا أمير المؤمنين، لو مُنع عنك البولُ ساعةً واحدةً كنت تفتديها بالدنيا وما فيها؟ فقال: نعم. فقال له: يا أمير المؤمنين، فما تصنعُ بدنيا لا تشتري بولةً ولا شربةَ ماء!"[٣].

إنه يعتمد طريقة المحاورة بالأسئلة، وإحصار المخاطب بما لا مجال إلىٰ إنكاره؛ من أجل إطلاق الحُكم القاطع الذي يُقرُّ به المخاطب والمستمع، وهذه طريقةٌ حجاجيَّة ناجعةٌ في الوعظ من غير شك.

٥- من معانيه التحذيرُ من مخالفة قول الواعظ عمَلَه: يقول: "كم من مذكِّر بالله ناسٍ لله! وكم من مخوِّفٍ بالله جريءٌ علىٰ الله! وكم من داعٍ إلىٰ الله فارٌّ من الله! وكم من قاري لكتاب الله [منسلخٌ][٤] من آيات الله! والسلام"[٥].

---

(١) نحوٌ من هذا المعنىٰ نجده عند الزُّهاد قبله كالحسن البصريّ (انظر: تاريخ التصوف في الإسلام من البداية حتىٰ نهاية القرن الثاني، للدكتور عبد الرحمن بدوي ص١٦٢، وكالة المطبوعات، الكويت، ط١/ ١٩٧٥م).

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

(٣) المجالسة وجواهر العلم ٣/ ١٤٥.

(٤) في الأصل: "ينسخ"، وهو تصحيف، والتصحيح من صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٧.

٦- ومن هذه المعاني معنىٰ متداول، بل لعله من معاني العامَّة في عصره، وهو معنىٰ "تناوبُ المُلْك"، حين يقول للرشيد: "واعلم يا أمير المؤمنين أنَّ الذي في يديك لو بقيَ علىٰ من كان قبلك لم يصل إليك، فكذلك لا يبقىٰ لك كما لم يبقَ لغيرك؛ فاتقِ الله في خلافته واحفظ وصية محمد صلىٰ الله عليه وسلم في أمته"(١).

٧- ومن معانيه معنىٰ تقبيح العمل كيما لا يغترَّ المرءُ بنفسه، كقوله: "أي أخي: أسرّ أعمالك علىٰ نفسك، ثم قبِّحها جهدك بعقلك؛ لعلَّه يدعوك بقبحها إلىٰ ترك مهاودتها. واعلم أنك ليس تبلغ غاية قبحها عند ربك، فسله أن يَمُنَّ عليك بعفوه"(٢).

٨- ومنها التخويف من القيامة وهَوْلها: قال ابن السماك: بعث إليَّ هارون، فلما أتيتُه إلىٰ باب القصر أخذني حَرَسَان فأسرعا بي إلىٰ القصر، فلما انتهيت إلىٰ صحن القصر لقيني خَصِيَّان ضخمان فأخذاني من الحَرَسين، فأسرعا بي إلىٰ قاعة القصر حتىٰ انتهينا إلىٰ باب البَهْو الذي هو فيه، فقال لهما هارون: ارفقا بالشيخ. فلما وقفت بين يديه فقلت له: يا أمير المؤمنين ما مرَّ بي يومٌ منذ ولدتني أمي أنا فيه أتعب من يومي؛ فقلت له: "يا أمير المؤمنين، واعلم أن لك مقامًا بين يدي الله تعالىٰ أنت فيه أذلُّ من مقامي هذا بين يديك؛ فاتقِ الله في خلقه، واحفظ محمَّدًا في أمته، وانصح نفسَك في رعيَّتك، واعلم أن الله آخذٌ سطواتِه وانتقامَه من أهل معاصيه"(٣).

(١) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٧.

(٣) شعب الإيمان، للبيهقي ٦/ ٣٦.

٩- ومن معانيه ومعاني الواعظين عمومًا: التشويقُ إلىٰ الجنة، والجنةُ دائمًا مُنْيَةُ المؤمنين، حتىٰ مَنْ كان منهم مُقَصِّرًا، فهي عند مقارنتها بالدنيا، داعيةٌ إلىٰ الزُّهد في الدنيا: "يا أمير المؤمنين، ناشدتُك الله أن تَقْدَم علىٰ جنة عرضها السماوات والأرض، وقد دُعيت إليها وليس لك فيها نصيب"[١].

١٠- ومنها معنىٰ الحياء من الذنب: "إنه ينبغي لك أن يدلك علىٰ ترك القول في أخيك ثلاثُ خلال: أما واحدة: فلعلك أن تذكره بأمرٍ هو فيك فما ظنك بربِّك إذا ذكرت أخاك بأمر هو فيك؟ ولعلك تذكره بأمرٍ فيك أعظم منه، فذلك أشد استحكامًا لمقته إياك، ولعلَّك تذكره بأمرٍ قد عافاك الله منه، فهذا جزاؤه إذ عافاك، أما سمعت: ارحم أخاك، واحمد الذي عافاك؟"[٢].

١١- ومنها تفاوتُ الذنب بتفاوت المُذنب: "واعلم أن الذنب من العاقل أعظم من الذنب من الأحمق، والذنب من العالم أعظم من الذنب من الجاهل، والذنب من الغني أعظم من الذنب من الفقير"[٣].

١٢- ومنها معنىٰ التوبة والندم: "أصبحت الخليقة علىٰ ثلاثة أصناف: صنفٌ من الذنب تائب، موطِّنٌ لنفسه علىٰ هجران ذنبه، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيئة. هذا المبرَّز. وصنفٌ يُذنب ثم يندم، ويذنب ويحزن، ويذنب

---

(١) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

(٢) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦-٢٠٧.

ويبكي. هذا يُرجىٰ له ويُخاف عليه. وصنفٌ يُذنب ولا يندم، ويُذنب ولا يحزن، ويُذنب ولا يبكي[1]. فهذا الخائن الحائد عن طريق الجنة إلىٰ النار"[2].

١٣- علىٰ أنَّ من المعاني السيَّارة في عظاته حديثَ (النَّفْس) فيها، فهو مهمومٌ برجع الناس إلىٰ أنفسهم، وبيان حال النفس، وكيف ينبغي أن تُعامل، وهو يُشَّقِّقُ القول في هذا المعنىٰ تشقيقًا.

فهو يرىٰ أنَّ المرء في تجارته وسعيه في الحياة لن يغنم كنفسه، أي بطاعة الله عز وجل واجتناب معصيته: "يا بن آدم، إنما تغدو في كسب الأرباح، فاجعل نفسك فيما تكسبه؛ فإنك لن تكسب مثلها"[3].

إنَّ إدخال المجرَّد (وهو النفس) في المحسّ (وهو الكسب) هو الذي بعث الروح في المعنىٰ، وهو الذي أحدث هذه البكارة التي نُحِسُّها في المعنىٰ، وهذا النوع من التجديد المعنوي إنَّما يأتي من طول التأمل والاهتمام بالاستنباط، وقَيْسِ البعيد علىٰ القريب، بل إدخاله فيه، ومزجِ الـمُجَرَّد بالـماديّ. فربحُ النفس هو الربحُ الصحيح في تجارة المرء، وهو الكسب الرابح، لا كسب الأموال والأمتعة، ولا ريب أنه قد أخذ هذا المعنىٰ من قول الله جل وعلا: "يا أيُّها الذين آمنوا هل أدلُّكُمْ علىٰ تجارة تُنْجيكم من عذاب أليم، تؤمنون بالله ورسوله

---

(١) مسلك الحُزن اصطنعه الحسن البصري، وأخذه عنه كبار الصوفية والزُّهاد في القرن الثاني الهجري (انظر: تاريخ التصوف الإسلامي، للدكتور عبد الرحمن بدوي ص١٧٢). وقد يُسمَّون البكّائين (انظر: الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، لآنا ماري شيمل ص٣٩).

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

(٣) تاريخ مدينة السلام ٨/ ٢٠٨.

وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم، ذلكم خيرٌ لكم إن كنتم تعلمون؛ يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنَّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، ومساكن طيبةً في جنَّات عدنٍ؛ ذلك الفوزُ العظيم"(١).

وهو يُعيد هذا المعنىٰ في وعظه، وهو معنىٰ البيع والشراء والفِداء، فيقول في موعظةٍ أخرىٰ: "وقد أصحبتَ يا بن آدم في دار الشِّراء ودار الفِدَاء، وغدًا تصيرُ إلىٰ دار الجزَاء ودار البَقَاء؛ فاتَّقِ الله يا بن آدم في نفسك، فاشترِ اليوم نفسَك، وفادِ بها كلَّ جهدك؛ لعلك أن تتخلَّص من عذاب ربِّك عزَّ وجل"(٢).

وهو يُصوِّر (النفس) ضعيفًا ينبغي أن يُراعىٰ، أو غِرًّا لا يُترَكُ وهواه: "وانظر إلىٰ ما تسوءُ عاقبته، فوطِّنْ نفسَك علىٰ مجانبته؛ فإنَّ ترك النفس وما تهوىٰ داؤها، وترك ما تهوىٰ دواؤُها؛ فاصبر علىٰ الدواء، كما تخافُ من الداء"(٣).

وهو يُعيد الرَّشيد إلىٰ (نفسِه) إعادة من يكشف للمحجوب عنه السُّتُر؛ علَّه يتَّعظ: "يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرضَ لخلافته في عباده غيرَك، فلا ترضَ من نفسك إلا ما رضي به عنك... يا أمير المؤمنين، من طلب فِكاك رقبته في مُهْلَةٍ من أجله كان خليقًا أن يُعتق نفسه"(٤). إذن نفسُ الإنسان في تفكير ابن السمَّاك الوعظي، هي أولىٰ ما يُراعَىٰ ويُعاهدُ ويُحفظ، في يوم المعاد قبل الدنيا.

---

(١) سورة الصَّفّ، الآيات ١٠-١٢.

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري ص١٩ (دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٧م).

(٤) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

وهو يُثْني علىٰ داود الطائيِّ في موقف رثائه، ويَعْجَبُ، بل يُعْجَب بحاله في التعامل مع (نفسه)، كيف استطاع ترويضَها ورياضَتها، وكيف صنع بها ما يُخالف نَظَرَ الناس من أهل الدنيا، فصار مثالًا صالحًا للزُّهَّاد من بعده: "يا داودُ، ما أعجبَ شأنَك من أهل زمانك! أهنْتَ نفسَك وأنت إنما تريد إكرامَها، وأَتعبتها وإنما تريد راحتَها، أخْشَنْتَ المَطعم وإنما تريد طَيِّبَه، وأَخْشَنْتَ الملبس وإنما تريد لَيِّنَه، ثم أمتَّ نفسَك قبل أن تموت، وَقَبَرْتَها قبل أن تُقبر، وعذَّبْتَها قبل أن تُعذَّب، وأَتْعَبت العابدَ من بعدك. سجنتَ نفسك في بيتك، ولا مُحَدِّث لك، ولا جليسَ معك، ولا فِراش تحتك، ولا سِتْر علىٰ بابك، ولا قُلَّة تُبرِّد فيها ماءك، ولا صُحْفةً يكون لك فيها غَداؤك وعَشاؤك، وما اشتهيت شيئًا من الطعام والشراب، ولا ليِّنِ الثياب، بل أنساك ذلك كلَّه هولُ يوم القيامة، وزفير جهنَّم وقيودُها وسلاسلُها وأنكالُها وأغلالُها؛ فالحمد لله الذي لا يُضيِّعُ سَعْيَ الـمُطِيعين ولا يَنْسىٰ إنابتَهُم وبكاءهم آناء الليل وآناء النهار"(١).

إنَّ هذا نصٌّ مهمٌّ في جلاء فكرة الزُّهد عند ابن السمَّاك وعند بعض أضرابه كداود الطائيّ، وبيان ما يجدر أن تكون عليه حالُ الزاهد، منْ ألَّا يُتبع الإنسانُ نفسَه هواها، بل يُصِمُّ أذنه، ويُعمي بصَرَه، وينصرفُ بكُلِّيته عنها -وهذا أمرٌ ليس بسهل- عساه أن يَظْفر برضىٰ الله ومغفرته.

***

(١) المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٧، هذه روايتُه، وفيها اختزالٌ يطول في رواية حلية الأولياء ٧/ ٣٣٦-٣٣٨.

وهنالك معانٍ يحاول أن يخرج بها ابن السماك عن السائد في المواعظ، فيصوغها صياغةً إبداعيةً، صياغةً يُحدث فيها الطَّرَافةَ لمعنىٰ قديم، نوجز أهمها فيما يأتي:

١٤- فمن تلك المعاني التي اصطنعها في خطاب الرَّشيد وهو يعظه: البحثُ عن الـمُثُل العُليا في غايات العيش، وبَثُّ ذلك في الخليفة الذي هو رأسُ أمر الأمَّة، إذ هو يدعوه إلىٰ ضرورة أن يكون كما يُراد له، لا كما يريد أن يكون، وهو معنًىٰ في تحميله المسؤولية: "يا أمير المؤمنين، إن الله لم يرضَ لخلافته في عباده غيرَك، فلا ترضَ من نفسك إلا ما رضي به عنك؛ فإنك ابنُ عم رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وأَوْلىٰ الناس بذلك"(١).

وهذه طريقةٌ حكيمةٌ في مخاطبة الخلفاء، ومدخلٌ جيِّدٌ لوعظهم، وهو تذكيرهم أنْ يكونوا علىٰ قدر الاختيار، وعلىٰ قدر المسؤولية، فالخليفةُ ابنُ عمِّ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم، ففي هذا ترقيقٌ قلبه. وهذه الطريقة من ذكر القرابة برسول الله صلىٰ الله عليه وسلم من سُبل الأدباء الذين عاشوا في زمان بني العباس في مخاطبة خلفائهم.

١٥- ومن ذلك دعوته إلىٰ أن يتخيَّل الإنسانُ نفسَه ميِّتًا، ورأىٰ الأهوال، ثم سأل الرجوع إلىٰ الدنيا لعله يعمل صالحًا، فأُعطي ذلك، يقول: "إن استطعت أن تكون كرجلٍ ذاق الموت وعاش ما بعده، ثم سأل الرَّجعة فَأُسْعِفَ في طلبه

---

(١) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

وأعطيَ حاجته ، فهو متأهب مبادر فافعل ، فإنّ المغبون من لم يقَدِّم من ماله شيئا، ومن نفسه لنفسه"(١).

فهذا النوع من الدعوة إلىٰ التخيُّل وعظٌ جيِّد، يستحثُّ الإنسان علىٰ المبادرة وترك التفريط. وفيه بثٌّ لروح جديد في فن الوعظ.

١٦- ومن المعاني العميقة عنده: ذهابُه إلىٰ أنَّ الزُّهد -في كثيرٍ من أحواله- عملٌ امتناعيٌّ لا كَسْبيّ، وأنَّ أول سبيل المتّقين الامتناعُ عن المعصية، والصبر علىٰ الدنيا؛ فقد كتب مرَّةً إلىٰ أخٍ له: "أفضلُ العبادة الإمساكُ عن المعصية، والوقوفُ عند الشهوة"(٢). وهو سالكٌ بهذا سبيل المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلم في قوله: "ومَنْ هَمَّ بسيئةٍ فلم يعملها كتَبها الله له عنده حسنةً كاملة"(٣).

ويقول: "والصبر عن المعاصي [هو الكُره](٤) لها، والصبر علىٰ طاعة الله فرع الخير وتمامه"(٥). فتلك أولىٰ درجات الزُّهد؛ فإنما الدنيا عند أمثال ابن السَّمَّاك من الزُّهاد، عبارةٌ عن مجموع هذه الشهوات والمعاصي، فمن تركها فقد زهد. وهذه صياغةٌ تبدو جديدةً لهذا المعنىٰ، فكأنها معنًىٰ جديدٌ عند من يقرؤها أول وهلة، مع أنَّ المعنىٰ قد قيل من قبل. وليس معنىٰ الابتكارِ في الأدب أن يَفْتِق

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٢) الآداب الشرعية، لابن مُفلح ١/ ١٧٨.

(٣) صحيح البخاري ٥/ ٢٣٨٠ (تحقيق دكتور مصطفىٰ ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ).

(٤) في الأصل: "هو لكن"، تحريف، والتصحيح من كتاب الصَّبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا ص٣١.

(٥) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

الأديبُ المعانيَ التي لم يأتِ بها أحدٌ قبلَه –فهذا نادر– بل أن يُعيدَها علىٰ هيئةٍ لها خصوصيَّةٌ تجعلها كالجديدة، هذه الخصوصيةُ نابعةٌ من روحه وصِدْقِه.

١٧– ثم من المعاني ما هو جهد عقليٌّ خالصٌ من ابن السماك في بناء معناه، فقد حضر يومًا جنازة فعزَّىٰ أهلها، وقال: "عليكم بتقوىٰ الله والصبر؛ فإن المصيبة واحدة إن صَبر لها أهلُها، وهي اثنتان إن جزعوا، ولَعمري المصيبةُ بالأجر أعظم من المصيبة بالميت. ثم قال: لو كان من جزع علىٰ ميّته رُدَّ إليه؛ لكان الصابر أعظم أجرًا وأجزل ثوابًا"(١).

١٨– ومن معانيه التي فيها جُهد نظر، صياغته معنىٰ "مَنْ هو أفقهُ من الزُّهاد"، وهو الذي يخاف من الدنيا وهو فيها من غير أن يتخذ الوعظَ سبيلًا، أو من غير أن يتخذ الوعظُ إليه سبيلًا، فالوعاظ يكتسبون وعظهم من التجربة والمعاينة، أمَّا هو فبصدقه وحَدْسِه عرف ما لم يعرفوا، يقول: "إن الذي يخاف من شرِّ الدنيا أعظمُ من الذي نحن فيه منها، إنما يُوضَحُ لنا شرُّ الدنيا عند الفراق لها، وعند معاينة ما اكتسبنا واقترفنا فصرنا إلىٰ الهلاك بها"(٢).

وهذا المعنىٰ فيه إنصافٌ كبيرٌ من ابن السماك، وتواضع، فالعلم بحقيقة الدنيا عنده لا يقتصر علىٰ طائفة الزُّهاد وحدهم، بل إنَّ مِنْ غيرهم مَنْ هو أعلمُ بشأنها منهم. وهذا مسلكٌ مهمٌّ من سماته في الوعظ؛ إذ لم يُكسبه الوعظُ ارتفاعًا علىٰ الخلق، وإلَّا لأضاعَ جوهَرَه ورونقَه(٣).

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي ١٢/ ٤٤٤.

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

(٣) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

١٩- ومن العمل الذي فيه إجهادٌ لعقله، لاستخراج جديد الوعظ، ما رواه عن نفسه قال: "لـمَّا طلبني هارون الرشيد قال : تكلم وادعُ. فدعوت بدعاء أعجَبَه وقلت في دعائي: اللهم إنك قلت: "وأقسموا بالله جَهْدَ أيمانهم لا يبعثُ الله مَنْ يَموت"، اللهم إنَّا نُقسم بالله جَهد أيماننا لتبعثَنَّ من يموت، أفتُراك يا ربِّ تجمع بين أهل القَسَمين في مكان واحد؟"[1].

وهذا الدعاء من قبيل الوعظ الذي به كُلْفة سببها الطريقة الحِجاجيَّة، وقد يُبعده الإيغالُ في مثل هذه الصناعة المعنويَّة عن ملامسة أوتار النفس؛ لأنه لا يصل إلىٰ القلب بأقرب طريق، ذلك أنه محتاجٌ إلىٰ إعادةٍ ومراجعةٍ حتىٰ يُفهم، فلذَّتُه في بنائه لا في حرارة معناه، وهذا لا يصلحُ في المواعظ من حيث هي مواعظ تُخاطب القلوب قبل أن تُخاطب العقول، وإنْ هي خاطبت العقلَ فإنَّ خطابَها يأتي تبَعًا لخطاب القلب.

فهذه الطريقة -مع أننا لا نجد لها صدًىٰ في أنفسنا- تكتسي بشِدَّة الفكرة، وإعمال النظر، وإن شئنا فلنقل: إنها صناعةٌ فِكْرية معنوية، مثل أن تكون صناعةً لفظيةً صَوْغيَّة. وهذا من جديد ابن السمَّاك في أدب الموعظة من غير شك، ومن جديد ما بلغ إليه هذا الفَنُّ عنده.

***

وقبل أن نُنهي هذا القسم من البحث نريد أن نشير إلىٰ **ملحوظة ظاهرةٍ** لمتتبِّع عموم نثر ابن السماك: أنه قلَّما يستشهد بآيةٍ من كتاب الله أو بحديث من

(١) التخويف من النار، لابن رجب ص٢٦٤.

كلام رسوله صلىٰ الله عليه وسلم استشهادًا صريحًا، وهذا لا يعني خروجًا منه عن معانيهما في سواد وعظه، بل هو يستقي منهما، ثم يبني وعظه بعبارته. والظاهر من أمره أنه واعظٌ أو قاصٌّ بمفهوم المولَّدين، وليس بمفهوم الوعَّاظ الأولَّين؛ والسبب في ذلك أنه كلما تباعد العهد بالجيل الأول من السلف الذين كانوا يفهمون كلام الله وكلام رسوله صلىٰ الله عليه وسلم، وتخشعُ قلوبُهم بهما؛ كلما تباعد ذلك العهد احتاج الناس إلىٰ مزيد من العبارة والصياغة الجديدة والخطاب المستحدث، وليس هذا الذي نذكره من وصف الحال من قبيل الاعتذار لابن السمَّاك، بل هو رصدٌ لجانبٍ مهمٍّ من جوانب نثره لم نرد أن نُخليَ البحث منه.

ومع ذلك فإنه قد يأتي بالقليل من الوعظ بالقرآن، بل قد يكتفي بآياته في العظة، ففي (العِقد الفريد): قال هارون لابن السمّاك: عِظني. قال: كفىٰ بالقرآن واعظًا؛ يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [سورة الفجر:٦-٧]، إلىٰ قوله: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ۝١٤﴾ [سورة الفجر:١٣-١٤]."[1].

وسوف نرىٰ بعدُ في هذا البحث كيف يتناصُّ وعظه في بعض المواضع مع حديث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم.

ونُشير أيضًا إلىٰ أنه كان ينظر في كلام الأوَّلين من أهل الكتاب، وربما نقل في كلامه بعضَ أحاديثهم، واستنبط منها، فعن عبد الله بن داود الخريبي قال:

---

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه ٣/ ٩٣.

حدثنا ابن السماك قال: "كان يحيىٰ بن زكريا عليه السلام إذا دخل قريةً فصلَّىٰ فيها، فعُرف؛ تحوَّل منها إلىٰ غيرها"[1].

فهذه إذن بعضٌ من موارد وعظه: القرآن والحديث، وإن كان لا يُصرِّح بألفاظهما في الأغلب، وكلام أهل الكتاب نادرًا، ثم ما يُفيده من أهل الزُّهد والحكمة ممن عاصره أو ممن كان قبلَه؛ يصوغ كل ذلك بعبارته وخِبرته ومدادِ عقله.

***

(١) العزلة والانفراد، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي ص١٥١ (تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، الرياض ١٤١٧ هـ).

(ج) البناءُ الإطاريّ:

١ - هيكل وَعْظِه:

بلغتنا عن ابن السماك نصوصٌ فيها طول، ولا سيَّما في رثائه داود الطائيَّ الواعظ، إذ له فيه خطبةٌ وعظيةٌ رثائيَّة وردت مختصرةً في (المجالسة وجواهر العلم)[١]، وتامَّةً مطوَّلةً في ترجمة داود في (حلية الأولياء)[٢]، إذ هي فيه وافيةٌ تتجاوز الصفحتين من قطع الكتب في عصرنا هذا. وهذا الطول نادرٌ في رواية ما روي من نثر ابن السمَّاك، سواءٌ الشفويُّ منه أو المكتوب.

غير أنَّ جُلَّ ما بلغنا من وعظ ابن السماك وكلامِه نصوصٌ مجتزأة، منزوعة من سياقها، أو أقوالٌ متفرِّقةٌ منتشرةٌ في الكتب. وتلك مُشْكلةٌ تَعرِضُ في تصوُّر الشكل الذي وَضع فيه ابنُ السماك كلامَه. نعم إنها نصوص شفويةٌ في سوادها الأكبر، وهي أقرب ما تكون إلىٰ الخُطبة، حتىٰ لو كانت متَّجهةً لموعوظٍ واحد؛ ولكنْ السؤالُ القائم: ما القالَب الذي سُكبت فيه هذه المواعظ، كيف كان يبدأها؟ وما مفاصلها؟ وكيف كان يُنهيها، وما عاداته في فنّه هذا؟ تلك جميعًا أسئلةٌ لا نستطيع الإجابة عنها إجابةً شافية.

والسبب في تلك المشكلة راجعٌ إلىٰ الرُّواة، أولئك الرجال الذين عُنوا بمحل الشاهد من الموعظة الذي أرادوه، أو المعنىٰ منها الذي استحبُّوه، فنقلوه، ولم ينقلوا ما قبله ولا ما بعده. لا تكاد تجد له موعظةً مسهِبةً منقولةً إلينا إلا قليلًا

(١) المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٧.

(٢) انظر: حلية الأولياء ٧/ ٣٣٦-٣٣٨.

كتأبينه داود الطائي(١) الذي أشرنا إليه، أو ككتابٍ إلىٰ أخٍ له يوصيه(٢)، أو كموعظةٍ له يعظ بها بعض جلسائه(٣). وكل هذا -مع ذلك- ليس بالمقدار الكبير. وما سواه إنما هو أسطر قليلة، أو أقوالٌ مأثورة، أعجبتْ الرواة فروَوْها؛ لما فيها من المعنىٰ أو السَّبْك.

وهؤلاء الرواة لا يشيرون في عامة ما يروون إلىٰ ما حذفوه من المتن، وقد يُشيرون قليلًا، مثلما جاء في (حِلْية الأولياء) عن "علي بن محمد البصري قال: كان أبو العباس بن السماك يقول في كلامه: "عجبًا لعين تلذُّ بالرقاد، ومَلَكُ الموت معه علىٰ وساد"(٤). فقوله: "في كلامه" دلالةٌ علىٰ اقتطاع القول من سياق، وفي القول نفسه ما يوحي بأنه ليس مستقلًّا، إيقاعًا ومعنًىٰ.

غير أنه لا شكَّ عندنا في أنَّ ابن السماك كان يبدأ موعظته -في الأغلب الأعم- بتقدمةٍ يـمهِّدُ بها: قد تكون نداءً ينادي به الموعوظ، من مثل قوله: "يا أمير المؤمنين"(٥)، أو: "معشرَ الإخوان"(٦)، أو: "يا بن آدم"(٧).

وقد تكون حمدًا وثناءً علىٰ الله عز وجلّ، وشَبَهَ ذلك، ولكنَّ هذا في مجمله لم يروه الرواةُ لنا؛ دليلُنا في هذا أنَّ بعضًا من مواعظه التي رُوي لنا مطلعُها

(١) المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٧.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٥) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

(٦) بستان الواعظين ورياض السامعين ص١٨٦.

(٧) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

استُفتح في الرواية بقوله: "أما بعد"[١]، وتلك طريقةُ الخطباء العرب، يجعلون (أما بعد) فصلًا بين الخطاب والمقدمة؛ فلا شك عندنا في وجود تلك المقدمة؛ ولكنَّ الرواةَ يتجوَّزون، ويتساهلون، ويقتصدون؛ فلا يروون تلك المقدمة. وليس هذا الشأن في كلام ابن السماك وحده، بل هو الشأن في سواد ما روي من الخطب قبل ابن السماك في العصور العربيَّة قبله[٢].

وقد ورد في بعض مواعظه نصٌّ يثبتُ وجود تلك المقدِّمة في كلامه الشفويّ، أورده أبو نعيم بإسناده، وفيه: "ثنا أبو حاتم الرَّازي: قال محمد بن السماك في مجلسٍ حضره فيه الرشيد، بعد أن حَمد الله وأثنىٰ عليه، وصلَّىٰ علىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم: ما يساوي ألفٌ من الخلف واحدًا من السلف... إلخ"[٣].

وينبغي أن نفرِّق هنا بين مواعظه الشفوية، وما كان يدوِّنه من المواعظ المكتوبة؛ فإنَّ الرواة في مواعظه المكتوبة كانوا ينصُّون علىٰ أول الموعظة بنقلهم قولَه: "أما بعد"[٤]. ولهذا حديثٌ آخرٌ سنذكره بعد قليل.

وإذا كانت المقدمة غائبةً في رواية خطبه في معظم الأمر، فإنَّ ما بعدها من التخلص والخاتمة لا يمكن الجزم فيه بقولٍ، إلا أن يقال: إن الخواتيم التي تنتهي

---

(١) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٢) انظر: نثر الصحابة: أغراضه وخصائصه، لمحمد شمس عقاب (دار الأمل للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط١/ ٢٠١٦م).

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢١١.

(٤) انظر مثلًا: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٧.

بها مواعظه الطويلة شيئًا ما، هي خواتيم خُطبه، وهي خواتيم تنتهي فيما وجدنا بنهاية المعنىٰ، لا بختامٍ خاصٍّ كالدعاء، والتسليم، والحكمة، ونحو ذلك.

وقل مثل ذلك في مواعظه المكتوبة، غير أننا وجدنا قليلًا منها قد نُصَّ علىٰ مقطعه وخاتمته، من مثل موعظة له كتب بها إلىٰ بعض إخوانه، ثم أنهاها بقوله: "والسلام"(١).

٢- الشَّفَوِيَّة والكِتابِيَّة:

ما دمنا قد ذكرنا مسألة الشفوية والكتابة في نثر ابن السمَّاك، فإننا نتساءل: هل ثمة خصائص يمتاز به كل قالَب عن الآخر؟

لقد وجدنا مجموعة من رسائل ابن السمَّاك التي كان يكتبُها: إما ابتداءً، وإما استكتابًا، كقوله: "كتب إليَّ رجل من إخواني من أهل بغداد: صف لي الدنيا. فكتبت إليه..."(٢).

وهذه الرسائل لا نعرف مقدارها إن شئنا التحديد، ذلك أننا لا نعرف عن هذه الأقوال والجمل المجتزَأة من كلامه: أمن خطبه هي أم من رسائله؟ وهذه مشكلةٌ أخرىٰ سببها ترك الرواة استكمالَ الرواية، أو النصَّ علىٰ نوع ما يروون.

لا نعرف مقدارها، ولكننا نذهب إلىٰ أنها أقلُّ من كلامه الشفويّ، فهذا النوع الشفويُّ يغلب علىٰ أدبه، فيما وقفنا عليه منه، وفيما مثَّلنا عليه من النصوص.

وإذا شئنا تلمُّس ما يمتاز به هذا النوع المكتوب من النوع الشفوي؛ استطعنا أن نقول إنها مزايا شكليةٌ من حيث القالَب، فهو يبدأها أحيانًا بقوله: "أما بعد"،

---

(١) انظر: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٧.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

مسقطًا هو نفسُه ما قبلها من التحميدات، من نحو قوله في كتابه الذي مرَّ بنا: كتب إليَّ رجل من إخواني من أهل بغداد: صف لي الدنيا. فكتبت إليه: "أما بعد، فإنه حفَّها بالشهوات"[1]. والذي يظهر أنه لا تحميدات في الكتاب؛ إذ هو جواب سريع مقتضَب، لم يجد داعيًا للتقديم له في هذا المقام؛ وكأن (أما بعد) قد استحالتْ عند أهل ذلك العصر إيذانًا بأنَّ ثمة ما سيُقال بعد، ولم تعد لها وظيفتُها الأولىٰ من الفصل بين كلامٍ سابقٍ وآخر لاحق.

وهل هذا يتناقض مع ما زعمناه قريبًا من وجود تلك المقدِّمات في خُطبه؟ كلّا؛ فإنَّ هذه اللفظة، وإن تحولت إلىٰ شيءٍ من الجمود والعُرْفية في بعض الأحيان، كما في هذا الكتاب؛ فإنها هي في نفسها تُعَدُّ تمهيدًا من التمهيد الذي ذكرنا استفتاحه كلامَه به: منطوقًا ومكتوبًا.

ذلك شيء، وشيءٌ آخر: أنَّ الكلام المكتوب قد صارتْ له -إلىٰ ذلك العصر- قواعدُ كتابيَّة لازمة، أخصُّ تلك القواعد ذكرُ (أما بعد)، حتىٰ لو لم يكن الكتابُ (كتابًا) اصطلاحيًّا له أولٌ ووسطٌ وآخر، بل كان أيَّ شيءٍ يُكتَب، فكلُّ ما يُكتب علىٰ هيئةٍ من الترسل؛ يُصدَّر بها، كأن يكون جوابًا لمسألةٍ في سطر.

وشيءٌ ثالث متفرّع مما ذكرنا: وهو أنَّ ابن السمَّاك في جوابه هذا، لم يُرد أن يُنْشئ رسالةً فنّيَّة، بل أراد الإجابة في قالَب رسالة مرْسَلة، من غير تَفَنُّن، فاتخذ له جزءًا من هيكل الرسالة؛ إعلامًا بالنوع فحسب، وكأنه يعود بالرسالة من الفنّيَّة إلىٰ النفعيَّة في مثل هذا النوع من الكتب.

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

من أجل هذا لا نعجب من تماديه في هذه الشَّكليَّة حين يُنهي كتابَه إلىٰ أخٍ له بلفظة: "والسَّلام"(١).

وهذه صورة كتابه هذا؛ لنتبيَّنَه: قال ابنُ السَّمَّاك: "كتب إليَّ رجل من إخواني من أهل بغداد: صِفْ لي الدنيا. فكتبت إليه: "أما بعدُ، فإنه حفَّها بالشهوات، وملأها بآفات، مزج حلالها بالمؤونات، وحرامها بالتَّبِعات، حلالُها حساب، وحرامها عذاب. والسلام"(٢).

إنه كتابٌ مقتضبٌ إذن، لم يحمل من خصائص الرسالة سوىٰ الشَّكل.

ولابن السمَّاك كتبٌ أخرىٰ علىٰ هذه الهيئةٍ من النمط الشكليّ، كقوله في كتابٍ آخر له أطول، إلىٰ أخ له، ذكر فيه (البعديَّة) و(التسليم): "أما بعد، أوصيك بتقوىٰ الله الذي هو نجيُّك في سريرتك، ورقيبُك في علانيتك... والسلام"(٣). ومن عَجبٍ أنَّ هذا الكتاب والذي قبله هما الأثران الباقيان فيما وجدنا من أدبه، اللذان وجدنا لهما خاتمة يُقْطَعُ بها.

وفي كتابٍ آخر له إلىٰ محمد بن الحسن حين ولي القضاء، نجده لم يُذكر فيه إلا (البعديَّة) فقط، أوله: "أما بعد، فلتكن التقوىٰ في بالك علىٰ كل حال... إلخ"(٤).

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٤) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

إنَّ في هذه الكتب القليلة ونحوها التزامًا بالقواعد الظاهريَّة للكتابة، من (الإيحاء بمقدمة) لم يكتبها الكاتبُ قبل (أما بعد)؛ تشبُّهًا منه -وهو في القرن الثاني الهجري- بما وجده من رسائل قديمة للمتقدمين، حَذَف منها الرواةُ مقدِّماتها، مكتفين بإثبات (البعدية) وحدها في مستهلِّها، وهي التي كانت للفصل بين كلام سابقٍ وكلامٍ تالٍ فيما مضىٰ، وهو ما يقتضيه معناها النَّحْوي؛ ثم صارتْ للابتداء الشكليّ الآن، فبدأوا بذلك كتبَهم؛ تشبُّهًا بهم تشبُّهًا سطحيًّا، ثم ولجوا بعدُ إلىٰ الموضوع، ثم ختموا بـ(السلام) تشبُّهًا وتقليدًا كذلك. وهذا نوعٌ من الجمود -لا شك- الذي أصاب فنَّ الكتابة.

إننا لا نجد شيئًا من السِّمات الكتابية ذا بالٍ في هذه الرسائل، يمكن أن يختلف بها عن النوع الشفويّ لدىٰ صاحبنا ابن السماك، من نحو تطويل جملة تباعد مسنداها، أو تقسيمٍ كتابيٍّ متراكب، أو تقسيمٍ بصري يُعين عليه الورق ويضم أشتاتَه، أو غير ذلك. وإنَّما هي خطبةٌ مكتوبةٌ طالتْ أو قصرت، ألقاها شفاهةً ثم كتبها، أو ألقاها وكتبها وكان يكتبها وهو يُسْمعُها نفسَه، فيما نُقدِّر.

إنَّ كُتُب ابن السمَّاك لم تختلف كثيرًا عن خُطَبِهِ في طابَعها الشفويّ، إلا في تلك الأمور الشكليَّة من هيكل الرَّسائل.

***

(د) البِناءُ الأُسلُوبيّ:

لم يبلغ ابنُ السَّمَّاك غاياته في مواعظه إلا بطُرُق اختطَّها لنفسه، وبوسائل وأساليب وضعها نُصْب عينيه، ونحن لا نريد أن نُفرِّق بين أداء اللفظ وأداء المعنىٰ، فإنهما لا ينفصمان، فاللفظُ هو المعنىٰ والمعنىٰ هو اللفظ، وأي تغييرٍ في أحدهما تغييرٌ في الآخر، ولكنَّا إنما ندرسُ الصياغة اللغوية بعد أن وقفنا أنفسَنا علىٰ مُهمِّ المعاني عنده؛ لنفسِّر خصائصه، ونبيِّن وسائلَه، لا لنقولَ هذا شيءٌ وهذا شيء. وقد وجدنا من هذه الوسائل والخصائص الأسلوبية عنده العناصر الآتية: الأُلْفة اللُّغوية، والتوليد والنموّ، وطريقة الأسئلة في الوعظ، والطريقة العقلية، والمقابلة والمطابقة، والتعجُّب، والتَّكرار، والتَّصوير.

١ - الأُلفةُ اللغويَّة:

لا نكاد نجد عند ابن السماك لفظةً غريبةً واحدةً لنمثِّل بها حتىٰ علىٰ قلة الإغراب عنده، ولم نجد كلمةً عسيرةً في الفهم أو النُّطق. وهذا اتجاهٌ سار فيه الرجلُ في وعظه، أن يختار له أيسر الألفاظ وأخفَّها في السمع، حتىٰ لا يشغل مستمعه عن موعظته بشيء من اللفظ.

ولا نكاد نجد تركيبًا متكلَّفًا، أو عبارةً معقَّدةً في تكوينها النحوي، أو بنائها المعنويّ علىٰ مستوىٰ الجُملة.

ومع أنه قد غبرت قرونٌ كثيرةٌ منذ وفاة ابن السماك، لا نستشعر بُعْدًا في ألفاظه ولا في عبارته؛ فكلامه قريبٌ مفهومٌ، وعبارتُه سيَّالةٌ سائغة، أقول هذا ونحن متأخرون عنه بقرون طويلة، فكيف بمعاصريه إذن؟ لقد كانت لغتُه –لا شك– سهلةً يسيرةً، تلج إلىٰ الأسماع بل القلوب من أقصر طريق.

وقد وضع أرسطو للخطابة قانونًا رآه موائمًا لها، فقال: "الأصلُ في الخطابة أن تكون الألفاظ التي تتركب منها الخطابة ألفاظًا أصلية مناسبة، وأن تكون الاستعارات وغيرها تدخل فيها كالأبازير، وكذلك اللغات الغريبة، وكذلك اللغات الـمُختَلَقة علىٰ سبيل التركيب، وهي ألفاظٌ لم تُستعمل في العادة علىٰ تركيبها... إنما يحسن في الخطابة من الأسماء ما كان مستوليًا، وقد عرفتَه، وما كان مناسبًا أهليًّا، وهذا هو اللفظُ النصُّ علىٰ المعنىٰ، وأما التغييراتُ فإنما تصلح إلىٰ حدّ"(١).

وقد عرَّف أرسطو هذه الألفاظ المستولية من قبل، فقال: "وهذه الألفاظ المتوسطة التي ترتفع عن درجة العامّيَّة، ولا تخرج إلىٰ الكلفة المشنوءة، تُسمىٰ ألفاظًا مستولية"(٢)، أي أنها ألفاظٌ معتادةٌ مألوفةٌ لا تُعيق الخطيب في لفظه، ولا السامع في فَهمه؛ وهذا شرطٌ للخطابة الناجحة، أي التي تبتغي سبيلًا إلىٰ إقناع المستمعين، والتأثير فيهم.

٢ - التَّوْليد والنُّمُو:

يتَّبع ابنُ السمَّاك طريقةً في بناء الجمل هي طريقة التوليد والتنمية، فهو يورد جملةً، ثم يؤسِّس منها أو يفرِّع عليها أو يولِّد منها جملةً أخرىٰ، ينتهي من كل

---

(١) الخطابة لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٢٠٤ (تحقيق الدكتور محمد سليم سالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ضمن سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٩م مصورة عن ط١/ ١٩٥٤م).

(٢) الخطابة لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٢٠٢.

ذلك إلىٰ نتيجة. وهذه طريقةٌ عقليةٌ منطقيَّةٌ في الصياغة، توحي للمتلقي بالنظام والتسلسل، وتودِعُ في نفسه إحاطة المتحدِّث بما يقول، فيميل إلىٰ التصديق له.

فهو يقول مثلًا في مقام تعزيةٍ لأهل ميت: "عليكمْ بتقوىٰ الله والصبر؛ فإنَّ المصيبة واحدة إن صَبر لها أهلُها، وهي اثنتان إن جزعوا، ولَعمري المصيبةُ بالأجر أعظم من المصيبة بالميت"(١).

فقد أسَّس موعظتَه علىٰ ترغيبهم في الصبر علىٰ مصيبتهم، لأنَّ ذلك من التقوىٰ، تلك الجملةُ الأولىٰ؛ ثم شرع يُفلسف العلاقة بين المصيبة والصبر، فالمصيبة ابتلاءٌ واحدٌ ممكن احتمالُه في وجود الصبر، لكن إنْ فُقِد الصَّبر -وهو الجملةُ الثالثة- حلَّتْ محلَّه -منطقيًّا- مصيبةٌ أخرىٰ، وهي مصيبة الإثم بالجزع من قضاء الله تعالىٰ، عندها لا يستطيع المرء مقاومة المصيبة الأولىٰ، لأنه ابتُلي بمصيبتين وفقد النِّعمة، نعمة الصبر والأجر. ثم يختم بنيتَه الفكريَّة بهذه الجملة أو (اللَّبِنة) الرابعة التي يشُدُّ بناءها بالقَسَم: "ولَعمري المصيبةُ بالأجر أعظم من المصيبة بالميت"(٢). وهو ختامٌ مُدْهش، لو قالَه من غير بناءٍ للمقدِّمات قبله لربما لا يُقبل، ولكن لما صنع لفكرته هذه الطبقات من الجمل، كان العقل والنفسُ أقبلَ لنتيجته، فنعم، لأن يفقد الإنسان حبيبًا أو قريبًا، خيرٌ له من أن يفقد دينَه، فهذا أثرٌ عظيم من آثار العقل في تلك الأعصُر العبَّاسيَّة.

وعلىٰ عكس ذلك هو يريد بناء معنًىٰ في التناقُص لا في الزيادة، فكأنه يبدأ بالكبير في النفوس (وهو الدنيا) ثم يُصغِّره رويدًا رويدًا، من أوله إلىٰ آخره،

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي ١٢/ ٤٤٤.

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي ١٢/ ٤٤٤.

فيقول: "إنما الدُّنيا أولها إلىٰ آخرها قليل، إنَّ الذي يبقىٰ منها في جنب الذي مضىٰ قليل، وإنَّ ما لَكَ منها قليل، وما بقي قليلٌ من قليل"[1]. فهو يبدأ بهذه الجملة الخبريَّة التي يقولُها الناس غالبًا: أنَّ الدنيا من أولها إلىٰ آخرها قليلٌ ليست بالطويلة، ثم هو يريد أن يُزهِّد الناس فيها، فيخبرهم في الجملة الثانية أنَّ الذي بقي منها قياسًا بما مضىٰ قليل، فهو قليلٌ أقلُّ من الأول، ثم يخبر موعوظَه أنَّ نصيبَه من هذا القليل الباقي قليلٌ جدًّا من غير شك، وهذا لا يُنكره أيُّ أحد، هذا في الجملة الثالثة التي ينتهي منها إلىٰ الحُكم في الجملة الرابعة: أنَّ ما بقي إذنْ قليلٌ في قليلٍ من قليل!

أليسَ هذا كلُّه من جهد العقل والتأمل، وأليس هذا مما لا يقوم به الإنسانُ بسجيَّته، إلا أن تكون سَجِيَّةً مُدَرَّبةً علىٰ التوليد والتمنطُق؟ بلىٰ، وإنَّ في تكرار (القليل) المتعمَّد في النص تثبيتًا لهذا المعنىٰ في ضمير السامع، وتقريرًا له، حتىٰ يغدوَ وكأنه معنًىٰ قائمٌ في نفسه، لا من الخارج.

إنه ليس من شأونا الإسهابُ في ذكر جميع الأمثلة من أدبه علىٰ هذا النوع من الصناعة، ولكن يكفينا بعضُ الأمثلة التي يُوضحها هذا الجدول:

	اللَّبِنة الأولى	اللَّبنة الثانية	اللَّبنة الثالثة	اللَّبنة الرابعة
١-	"عليكم بتقوىٰ الله	فإن المصيبة واحدة إنْ صَبر	وهي اثنتان إن جزعوا،	ولَعمري المصيبةُ بالأجر أعظم من

---
(١) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

	والصبر؛ (أساس)	لها أهلُها، (توليد من السابقة بالسببية)	(توليدٌ و نمو في المعنىٰ)	المصيبة بالميِّت"[1]. (نمو في المعنىٰ، واحتجاج بالقسم، ونتيجة)
٢-	"إنما الدُّنيا أولها إلىٰ آخرها قليل، (أساس)	إنَّ الذي يبقىٰ منها في جنب الذي مضىٰ قليل، (تنمية للمعنىٰ بالنقص)	وإنَّ ما لَكَ منها قليل؛ (قياسٌ مولَّد، ونمو في معنىٰ النقص)	وما بقي قليلٌ من قليل"[2]. (نمو في معنىٰ النقص، ونتيجة)
٣-	"اللهم ارزقني حَمْدًا ومَجْدًا؛ (أساس)	فإنه لا حَمْدَ إلا بفِعال، (تنمية للمعنىٰ بالسبب)	ولا مَجْدَ إلا بمال؛ (تنمية للمعنىٰ بالسبب)	اللهم إنه لا يَسَعُني القليل ولا أَسَعُه"[3]. (تنمية، ونتيجة)
٤-	"إن لك بين يدي الله عز	وإن لك من مقامك منصرفًا؛	فانظر إلىٰ أين منصرفُك: إلىٰ	

(١) شعب الإيمان، للبيهقي ١٢/ ٤٤٤.

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

(٣) الآداب الشرعية، لابن مفلح ١/ ٣٧٠.

	وجل مقامًا، (أساس)	(توليدٌ سبَّبه لفظ القيام)	الجنة أو إلىٰ النار!"[1]. (نموٌّ، ونتيجة)	
٥-	"إنَّ تواضعك في شرفك، (أساس)	أشرفُ لك من شرفك"[2]. (توليد أحدثه اللفظ قبله، اللفظ ينسل اللفظ)		
٦-	"لا تخفْ ممن تحذر، (أساس)	ولكن احذر ممن تأمن"[3]. (توليد بالاستدراك، ونمو)		

٣- طريقة الأسئلة:

ثمة طريقةٌ قديمةٌ مؤثِّرةٌ يجنح إليها كثيرٌ من الوعَّاظ في القديم والحديث، هي طريقةُ الوعظ بالأسئلة، والمقصود بها إلقاء الاسئلة علىٰ اختلاف ألوانها

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٤.

(٢) التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي ص١٢٧ (تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٩هـ).

(٣) شعب الإيمان ٩/ ٣٥٠.

البلاغيَّة علىٰ أسماع المخاطبين، لا لإرادة جوابٍ غالبًا، بل لرجعهم إلىٰ أنفسهم يسألونها ويُجيبون من غير صوت، تجيب عنها ضمائرُهم وقلوبهم، فيخشعون، وتذلُّ أنفسُهم للموعظة، وتنكسرُ حِدَّةُ الخلاف المظنونة في تضاعيف النفس. والجودةُ في هذه الطريقة معتمدةٌ علىٰ نوع السؤال المُلْقىٰ: أموافقٌ هو لحال المخاطبين؟ أمختارٌ هو بعناية ليكون لَفْقًا للأسئلة بعده، وقبلَه؟ أصالحٌ هو لسياق تلك الموعظة؟

ونضرب مثلًا من مواعظ ابن السَّمَّاك، وقد حضر يومًا جنازة، فلما نظر إلىٰ القبور بكىٰ وقال لأصحابه: "معشر الإخوان، ألا متأهِّبٌ لموتٍ يوصف لهُ يراه أمامه؟! ألا مستعدٌ ليوم فقره ونزوله إلىٰ حُفرته وقبره؟! ألا شابٌّ عازمٌ قد بارز لمنيِّته؟! ألا مَنْ ليس يُغيِّره شباب مَتْنِه ولا شِدَّةُ قوّته؟! ألا شيخ قد بادر لانقضاء مُدَّته، فشمَّر السير فيما بقي من رَمَقِه؟! ماذا يَنتظر من دَفَن أباه وقبرَ أمَّه وأخاه ما فرح من القبر مأواه والتراب فراشه وغطّاه؟!"(١).

لقد استغلَّ ابنُ السمَّاك الموقف –موقف الجنازة– ويا لَه من موقف صالح كل الصَّلاح للوعظ، ولطالما استثمره الواعظون؛ إذ فيه تُلقي الأنفسُ عنها أحمال الغرور والجبروت والكِبْر، وتنظرُ في يوم مَقدمها علىٰ هذه الحال إلىٰ القبر؛ إنَّ النفوسَ فارغةٌ إذنْ لتُفاضَ فيها الموعظة، فالحال مواتية. وهذه الأسئلة المنوَّعةُ المتتابعة تأتي علىٰ القلوب لتأدية مَهَمَّة واحدة؛ كالطرقات القصوىٰ علىٰ

---

(١) بستان الواعظين ورياض السامعين ص١٨٦.

حديدٍ ألهبتْه موعظة الموت وفُقدان الأحبة، فتكون فرصة الخطيب حينئذٍ مُثلىٰ قبل أن تبردَ نار الخوف والرهبة من ملاقاة ذلك اليوم.

إنَّ الأسلوب العاطفيَّ من أنجع الوسائل في مقام الوعظ، وفيه يستخدم الخطيبُ الأساليب الإنشائيَّة لبلوغ غايته من التأثير في نفس مستمعه(١)، كالأسئلة التي أتت علىٰ غير حقيقتها في هذه الموعظة، بل أتت لأغراضٍ أخرىٰ تستدرُّ الحُزن والخوف والإنابة، وكتكرار لفظة "ألا" في رأس كل سؤال من هذه الأسئلة(٢).

وفي مقامٍ آخر ليس مقام القبور، لا يحتاجُ فيه إلىٰ إنشاءٍ عاطفيٍّ خطابي يُثير المشاعر؛ بل إلىٰ خطابٍ من الأسئلة عقليّ، يثير العقل، ثم يُفضي إلىٰ إثارة المشاعر، كسؤالاته لهارون الرشيد التي قدَّمنا بها من قبل: "يا أمير المؤمنين، لو مُنع عنك الماءُ ساعةً واحدةً؛ كنتَ تفتديها بالدنيا وما فيها؟ فقال: نعم. فقال له: يا أمير المؤمنين، لو مُنع عنك البولُ ساعةً واحدةً كنت تفتديها بالدنيا وما فيها؟ فقال: نعم. فقال له: يا أمير المؤمنين، فما تصنعُ بدنيا لا تشتري بولةً ولا شربةَ ماء!"(٣).

---

(١) انظر: الخطابة العربية في عصرها الذهبي، للدكتور إحسان النّص ص٢١٨ (دار المعارف ١٩٦٣م).

(٢) انظر تفصيل القول في أثر العاطفة في الاحتجاج: مقالة الدكتور حاتم عبيد: منزلة العواطف في نظريات الحجاج ص٢٣٩ (ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

(٣) المجالسة وجواهر العلم ٣/ ١٤٥.

إنه هنا لا يستخدم الأسئلة استخدام الواعظ وحدَه بل استخدام الحكيم الذي يُراعي عقل مُحَدِّثه، ومقامَه، وطبيعة نفسه، وهو يُريد أن يصل به إلىٰ نهاية ترقيق قلبه، وهي غايةٌ مُضْنيةٌ في مثل هذا الموقف الذي تقوم دونه عقباتٌ كأداءُ في حال الخليفة، لا تقوم بها في حال مَنْ دفَن أباه أو أمَّه في القبر.

إنَّ طريقة إلقاء الأسئلة أداةٌ جوهريةٌ قديمةٌ من أدوات الحِجَاج(١)، يعمد إليها الخطيب الماهر كثيرًا، لاستخراج طِلْبته، واستنباط ما يبتغيه من نفوس مخاطبيه.

٤- الطريقة العَقْليّة:

لابن السمَّاك طريقةٌ عقليَّة أشرنا إلىٰ شيءٍ منها عند الحديث في البناء المعنويّ، ولكننا هنا سنورد بعض الأجزاء التي اتخذ فيها طريق العقل سبيلًا للتأثير والإقناع، وهو يتخذ هذه السبيل بكل يُسر، كأنما الرجل ذو طابع عقليٍّ أكيد ضمن طوابع أخر.

وهو يُخاطب كل فئة بما يُناسبها من الخطاب الذي تُجيزه وتفهمُه؛ خبرةً منه بأحوال جمهور وما يجدر أن يُقال لهم. فهو يقول مثلًا مبيِّنًا أحوال الذنب واختلافَها باختلاف أصحابها: "واعلم أن الذنب من العاقل أعظمُ من الذنب من الأحمق، والذنبَ من العالم أعظمُ من الذنب من الجاهل، والذنبَ من الغني أعظمُ من الذنب من الفقير"(٢).

---

(١) انظر: الحِجاج في الشعر العربي: بِنيتُه وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي ص١٤٠ (عالم الكتب الحديث، إربد، ط٢/ ٢٠١١م).

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

إنه يوردُ أمورًا كالبدهيَّات التي تتفق عليها عقولُ الناس، ولكنهم قد ينشغلون عن مُؤدَّاها بأشغال الحياة، وهذه وظيفة الخطيب الواعظ: أن ينبِّه الناس من غفلةٍ رانتْ علىٰ قلوبهم، وأن ينفض عن عقولهم غبار النسيان.

إنَّ ابن السمَّاك يستخلص في موعظته هذه شرائح بعينها من المجتمع يتوجَّه إليها بالنصح، هم العقلاء والعلماء والأغنياء، وهم صفوة القوم؛ والذين ما يكون لهم -وقد أنعم الله عليهم بنعمه- أن يعصوه سبحانه وتعالىٰ.

وهذه الطريقة من استخلاص طائفة من المجتمع اصطفاهم الله فأنعم عليهم، فكانوا أجدر بعبادته شكرًا للنعمة؛ هذه الطريقة في العظة طريقةٌ نبويّة؛ فقد جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: "ثلاثةٌ لا يكلِّمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم، قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم، ولهم عذاب أليم: شيخٌ زانٍ، وملك كذَّاب، وعائلٌ مستكبر"(١).

وقد يسلك ابن السمّاك بمخاطَبه سبيل الإلزام المنطقيّ بين اختيارين لازمين في العقل، فقد روي أنه قال لأصحاب الصوف: "والله لئن كان لباسكم وفقًا لسرائركم؛ لقد أحببتم أن يطَّلع الناسُ عليها، وإن كان مخالفًا لقد كذبتم"(٢).

فليست الهيئة الظاهرة عنده علامةَ الحقيقة، فقد يُظهر الإنسان خلاف ما يبطن. إنه يدعوهم إلىٰ أن يعيشوا كالناس، مع زُهد القلب، وهذه طريقةٌ نبويَّةٌ صِرفة، ونحن نعرف حديث النبي مع الثلاثة نفر الذين جاؤوا إليه فقال لهم:

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٧٢.

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧١.

"لكني أصومُ وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوجُ النساء؛ فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني"[(١)].

وربما سلك طريق الأسئلة التصديقية لإلزام المخاطب بما يبغي، كتزهيده شأن الدنيا في عين هارون بهذا الحوار الذي دار بينهما: "يا أمير المؤمنين، لو مُنع عنك الماءُ ساعةً واحدةً؛ كنتَ تفتديها بالدنيا وما فيها؟ فقال: نعم. فقال له: يا أمير المؤمنين، لو مُنع عنك البولُ ساعةً واحدةً كنت تفتديها بالدنيا وما فيها؟ فقال: نعم. فقال له: يا أمير المؤمنين، فما تصنعُ بدنيا لا تشتري بولةً ولا شربةَ ماء!"[(٢)].

وقد يلجأ ابن السماك إلىٰ وسائل عقلية أخرىٰ كحصر المخاطب في فروع المعنىٰ، واستيفائه فلا يجد مخرجًا إلىٰ فرعٍ جديد، كقوله: "إنه ينبغي لك أن يدلك علىٰ ترك القول في أخيك ثلاثُ خلال: أما واحدة: فلعلك أن تذكره بأمرٍ هو فيك، فما ظنك بربِّك إذا ذكرتَ أخاك بأمر هو فيك؟ ولعلك تذكره بأمرٍ فيكَ أعظمُ منه، فذلك أشد استحكامًا لمقته إياك. ولعلَّك تذكره بأمرٍ قد عافاك الله منه، فهذا جزاؤه إذ عافاك، أما سمعت: ارحم أخاك، واحمد الذي عافاك؟"[(٣)].

فهو يعتمد علىٰ طريقة الحصر والتقسيم العقلي لإحكام النطاق علىٰ المخاطب؛ إذ لا يجد منفذًا يخرج منه، وهي طريقةٌ موغلةٌ في خطاب العقل، عن طريق محاورته، وابتغاء تأييده للقسمة المنطقية السهلة، ثم إطلاعه علىٰ حقيقة

---

(١) صحيح البخاري ٧/ ٢.

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٣/ ١٤٥.

(٣) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

الأمر بجلب جميع صوره، والنتائج التي تستلزمها كل صورة؛ ليقف علىٰ بصيرةٍ مما هو فيه. وجميع النتائج لا تؤدي إلّا إلىٰ ما أراده الواعظُ من العظة، وهو تبغيضُ أن يعيب المرءُ أخاه بأي شيء.

وربما اتبع سبيلًا عقليًّا ليهوِّن المصيبة في نظر الناس، لا طريقًا نقليًّا أو عاطفيًّا، كما صنع حين حضر يومًا جنازة فعزَّىٰ أهلها، وقال: "عليكم بتقوىٰ الله والصبر؛ فإن المصيبة واحدة إن صَبر لها أهلُها، وهي اثنتان إن جزعوا، ولَعمري المصيبةُ بالأجر أعظم من المصيبة بالميت. ثم قال : لو كان من جزع علىٰ ميّته رُدَّ إليه؛ لكان الصابر أعظم أجرًا وأجزل ثوابًا"(١).

وبنحوٍ من هذه الوسائل العقلية يمتلئ نثر ابنُ السَّمَّاك، بما يُعد خصيصةً واضحةً من خصائص هذا النثر.

٥- المُقابَلة والمُطَابقة:

شاعتْ المقابلة في مواعظ ابن السَّمَّاك، وإنَّ لها شأنًا كبيرًا في أدبه، إذ هي من سماته الظاهرة، فهو يحرص علىٰ أن يوشِّيَ بها مواعظَه فَيْنَةً بعد أخرىٰ، ليس توشية رونقٍ ومَظهرٍ فحسب، بل توشيةً تمسُّ المعنىٰ وتؤثِّرُ فيه، فتراه يصطنعها أحيانًا ليُحْدِثَ بها انتباهةً في نفس السامع؛ لكي يُظْهره علىٰ النقائض في الشيء الواحد، مما يدعو إليه موعوظه أو يُحذِّره منه، كما قال لهارون الرشيد في عبارةٍ سهلةٍ سمحة: "يا أمير المؤمنين، من ذَوَّقتْهُ الدنيا حلاوتَها بركونٍ منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها"(٢).

---

(١) شعب الإيمان، للبيهقي ١٢/ ٤٤٤.

(٢) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

أو أن يُظهره علىٰ شيءٍ غاب عنه وهو قريب يسير، وخفي عليه وهو ممكن مُدْرَك: "عجبًا لمن يشتري المماليكَ بماله، ويتركُ شراء الأحرار بمعروفه!"[1].

إنَّ مثل هذا النوع من المقابلة ذاتِ المفارقة، لمما يُوصل المعنىٰ وصولًا مباغتًا، مضيفًا إليه عتْبًا علىٰ السامع لنفسه، وهذا أمرٌ فوق إيصال المعنىٰ فحسب.

إن من بلاغة التقابُل وسِرِّ إقناعه أنَّ له الطابع المنطقيَّ في الحجة؛ لأن وضْع نتيجتين متضادتين في المنطق متجاورتين، يُيسِّر الحكم بأنَّ إحداهما ضارَّةٌ أو خاطئة[2].

وقد يُقابل بين أمورٍ قد تبدو معروفةً، ولكنَّ شأن التذكير أن يُعيد الـمُذكِّرُ الناسَ إلىٰ ما يعرفونه، ولكنهم قد ينسونه في ملاهي الدنيا أو ينشغلون عنه ببحثهم وسعيهم في هذه الحياة، كقوله مثلًا: "واعلم أنَّ الذنب من العاقل أعظم من الذنب من الأحمق، والذنبَ من العالم أعظم من الذنب من الجاهل، والذنب من الغني أعظمُ من الذنب من الفقير"[3].

فهذه أصناف تقلُّ فيها دواعي الذنب، فالذنبُ في حقها أعظم. وهو هنا يستقي -لا شكَّ- من حديث رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم: ثلاثةٌ لا يكلمهم

(١) شعب الإيمان، للبيهقي٧/ ٤٤٤.

(٢) انظر: النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال ص١٢٠ (دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٦م).

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

الله يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولا ينظر إليهم، ولهم عذابٌ أليم: شيخٌ زانٍ، ومَلِكٌ كذَّاب، وعائلٌ مستكبر"(١).

وقد يريد بالمقابلة إظهارَنا علىٰ التباين الشديد في الأمر، توكيدًا لتأثيرٍ وعظيٍّ يبتغيه من كلامه، وهو يعلم كيف يسوقُه ليُحْدِثَ به هذا الأثر، كبنائه جملةً واسعة من تأبينه دواد الطائيّ علىٰ هذه الخصيصة، فيقول: "يا داود ما أعجبَ شأنك! ... ألزمت نفسَك الصمت حتىٰ قوَّمتها علىٰ العدل، أهنتَها وإنما تريد كرامَتها، وأذللتها وإنما تريد إعزازها، ووضعتَها وإنما تريد تشريفها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، وأجعتها وإنما تريد شِبعها، وأظمأتها وإنما تريد رِيَّها، وخشَّنت الملبس وإنما تريد لَيِّنه، وخشَّنت المطعم وإنما تريد طيِّبه، وأمتَّ نفسك قبل أن تموت، وقبرتَها قبل أن تُقبر، وعذَّبتها قبل أن تُعذَّب، وغيَّبتها عن الناس كي لا تُذكر، ورغبتَ بنفسك عن الدنيا فلم ترَ لها قدرًا ولا خَطَرًا، ورغبت بنفسك عن الدُّنيا: عن أزواجها ومطاعمها وملابسها، إلىٰ الآخرة وأزواجها ولباسها وسندسها وحريرها وإسْتَبْرَقِها؛ فما أظنك إلا قد ظفرت بما طلبت، وظفرت بما فيه رغبت"(٢).

وهي كلُّها مقابلاتٌ قائمةٌ علىٰ المفارقة في اللفظ، إذ ذهب السامعُ إلىٰ ظاهر اللفظ الذي تعوَّده في هذه الدنيا، وذهب ابنُ السَّمَّاك أن داود عَمِل لحقيقة الآخرة، بالألفاظ نفسِها، ولم تُلهه زخارف الدنيا، فلم يأبه لظواهر الألفاظ، بل تبصَّر بحقائها.

---

(١) صحيح مسلم ١/ ٧٢ (دار الجيل، بيروت، مصورة من طبعة إستانبول ١٣٣٤ هـ).

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٣٦.

فالسامع يظنُّ أولًا أنَّ داود تعمَّد إيذاء نفسه وبدنه، حتىٰ إذا توالتْ الجمل، تفطَّن جملةً بعد جملةٍ، أنَّ الزهد في الدنيا هو المُنْجي من هذه الدنيا، وأن ما ظاهرُه النعيم والراحةُ في الدنيا، هو بؤسُها، وأن تركَه هو النعيم الحقيقيُّ والراحة. ولذلك ينتهي العبد من الموعظة إلىٰ أنَّ الآخرة هي ما ينبغي أن يكون شاهدًا في ضميره مادام حيًّا.

لقد استغلَّ ابنُ السمَّاك رثاءَه لداود أمام الناس فأراد أن يجعله مثلًا، وأن يبني علىٰ سيرته مادَّةَ وعظه، من أول خطبته إلىٰ آخرها، وقد استفتحها بنحو هذا من فكرته التي تقابل بين المصيب في النظر، والمخطئ فيه، فيقول: "وإنَّ داود نَظَر بقلبه إلىٰ ما بين يديه، فأعشىٰ بصرُ قلبه بَصَرَ العيون، فكأنه لم يُبصر ما إليه تنظرون، وكأنَّكم لا تبصرون ما إليه ينظر؛ فأنتم منه تَعجبون، وهو منكم يتعجَّب! فلما نظر إليكم راغبين مغرورينَ قد ذهبت علىٰ الدنيا عقولُكم، وماتتْ من حُبِّها قلوبُكم، وعشقتْها أنفسُكم، وامتدَّتْ إليها أبصاركم؛ استوحش الزاهدُ منكم، فكنت إذا نظرتُ إليه عرفتُ أنه من أهل الدنيا وحشٌ، وذلك أنه كان حيًّا وسط موتىٰ!".

تلك هي العبارةُ الجامعة، التي تختصر حال الزاهد وحال الناس: "حيٌّ وسط موتىٰ".

لقد كانت الطباقات والمقابلات في هذه القطعة من أبلغ ما يكون في الدلالة علىٰ ما أراده الواعظ؛ وقد استطاع بهذا الحشد المتوالي من أمثلة هذا النوع البلاغي، الذي تضافر فيه الصوتُ والمعني، أعني الإيقاع الازدواجيَّ بين

الجمل؛ استطاع أن يؤديَ الرسالة التي رامها، وأن يُبلغ الأثر الذي سعىٰ إليه في نفوس مستمعيه.

ثم إنه تأنَّق بعد ذلك، بعد أن ضمن من مستمعيه فهم طريقته المقابَلِيَّة، فأوردَ جُزءًا عقليًّا فيه نوعٌ من الصناعة التي تطرقنا إليها من قبل، فقال وهو يمضي في ذكر محاسن ميّته: "آنَسُ ما تكونُ إذا كنت بالله خاليًا، وأوحشُ ما تكونُ إذا كنت مع الناس جالسًا؛ فأوحشُ ما تكون آنسُ ما يكون الناس، وآنسُ ما تكون أوحشُ ما يكون الناس"[1].

وقد يأتي ابنُ السمَّاك بالمقابلة لبناء معنًىٰ لم يكن ناشئًا في نفس مخاطبه، كأنه يُجلِّيه له، كمعنىٰ حب الإنسان لما يُبغض الله تعالىٰ، وهذا قد يُنْكر أن يكون المرء عليه، ولكن لما قرَّبه بأنَّ الله أحبَّ الآخرة وكره لنا الدنيا فخالفنا ذلك، صار ما طرحه ابنُ السمَّاك من المعنىٰ صحيحًا، بالمقابلة، في نحو قوله: "يا أمير المؤمنين، إن الذي أكرمك بما أكرمك به لحقيقٌ عليك أن تحبَّ ما أَحبَّه، وتُبغض ما أبغضه، فوالله لقد أحبَّ الله دارًا وأبغضتَها، وأبغض دارًا وأحببتَها، فكأنما أردت خلاف ربك أو أردت سواه".

إنَّ ثمة عملًا للعقل شديدًا رأيناه هنا، كما رأيناه في غير هذا الموضع. عملٌ يُهوِّل ما قد يستهين به المرء من ذنب، بناه ابن السماك في العرض علىٰ عظمة من يُعصَىٰ، لا علىٰ ما يتصوره المرء من الذنب. هذا البناء في نفسه هو أساسُ هذا العمل العقلي، كيف استطاع أن يخرج به من صياغةٍ معتادةٍ إلىٰ صياغة مُهوِّلة؛

(١) حلية الأولياء ٧/ ٣٣٧.

ذلك كلُّه مما يدلُّ علىٰ أنَّ ابن السمَّاك لم يكن يُلقي بخُطبه علىٰ عواهنها، بل كان يُردِّدها في جَنانه، ويُزوِّرها في نفسه، ويتجهَّزُ لها.

٦- التعجُّب:

التعجب من السِّمات الواضحة في مواعظ ابن السَّمَّاك، فهو يُبديه من أولئك الذين يختارون الدنيا أو يركنون إليها، أو يعملون للناس ولا يعملون لله عز وجل، أو من أولئك الذين لا يُبصرون حقائق الأشياء؛ فهم عنها في غفلة.

وهو قد يُظهر التعجُّبَ بلفظه، كقوله: "عجبًا لمن يشتري المماليكَ بماله، ويتركُ شراء الأحرار بمعروفه!"[1]. أي أعجبُ عجبًا من هؤلاء. وقد يستعمل صيغتَه الكثيرة (ما أفعلَه) كقوله: "يا داودُ، ما أعجبَ شأنَك من أهل زمانك! أهنْتَ نفسَك وأنت إنما تريد إكرامَها...".

وأحيانًا يُكرِّره: "مَا أَعْجَبَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا نَحْنُ فِيهِ ؛ كَيْفَ غَلَبَ عَلَيْنَا حُبُّ الدُّنْيَا ؟! وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا مَا نصير إِلَيْهِ كيف غفلنا عَنْهُ؟! عَجَبًا لِصَغِيرٍ حَقِيرٍ إِلَىٰ فَنَاءٍ يَصِيرُ، غَلَبَ عَلَىٰ كَثِيرٍ طَوِيلٍ دَائِمٍ غَيْرِ زَائِلٍ!". وهو في هذا كلِّه يُفضِّل -وهو يتعجب بصيغة التعجب القياسيَّة- التعجُّبَ بفعلٍ مشتقٍّ من مادة (ع ج ب)، ثم يُردِفه بفعل آخر منها "وأعجَبُ منه"، ثم اسمِ مصدرٍ منها "عجبًا لصغير"؛ في مزجٍ مقصودٍ لألفاظ التعجب: صيغةً وأفعالًا ومصادر.

وقد يعمد إلىٰ صيغةٍ أخرىٰ في تعجُّبه، وهو التعجُّب بكم الخبريَّة التي تفيد الكَثرة، ويكرر ذلك تكرارًا يقرع الأسماع، التي لعلَّها قالتْ: ليتَه سَكَت: "كم من مذكِّر بالله ناسٍ لله! وكم من مخوف بالله جريء علىٰ الله! وكم من داعٍ إلىٰ الله فارٌّ

(١) شعب الإيمان ٧/ ٤٤٤.

من الله! وكم من قارئٍ لكتاب الله [منسلخٌ][1] من آيات الله!"[2]. وهو هنا يعظ أصحابَ المواعظ أنفسهم، ويُحذِّرهم من سوء عاقبتهم إن هم فعلوا ما لا يقولون.

وقد يأتي بالتعجب على صيغة الاستفهام الإنكاري؛ كهذا التعجب الذي جعله قرار سؤالاته واستفهاماته: "... يا أمير المؤمنين، فما تصنعُ بدنيا لا تشتري بولةً ولا شربةَ ماء!"[3]. وهي نهايةٌ في حاقِّ غرضها، معضودةٌ بهذا التعجب القاطع للأمر، المفيد معناه الحقيقي، لا ظاهره الاستفهاميّ.

تلك ألوانٌ كان يُلوِّنُ بها ابنُ السمَّاك قِطَعه وأقوالَه، وكان يستخدمها ببراعةٍ حيث يقتضيه المقام، فمرَّةً يُصرِّح بالتعجُّب، ومرَّةً يُظلِّله بظلاله الشفيفة التي ينبض بها التعجُّبُ من تحتها.

٧- التَّكرار:

يأتي التكرارُ في الكلام "تأكيدًا له وتشييدًا من أمره، وإنما يُفعل ذلك للدلالة على العناية بالشيء الذي كرَّرتَ فيه كلامَك؛ إمَّا مبالغةً في مدحه، أو في ذمِّه، أو

(١) في الأصل: "ينسخ"، وهو تصحيف، والتصحيح من صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦-٢٠٧.

(٣) المجالسة وجواهر العلم ٣/ ١٤٥.

غير ذلك"[1]. وهو يُفيد أيضًا متانةً في الكلام، وضَمًّا لأجزائه، وردَّ بعضه علىٰ بعض، ويُفيد العنايةَ بالمكرَّر منه[2].

وثمة خبرٌ مهمٌّ نقله الجاحظ في البيان والتبيين، قال: "جعل ابنُ السمَّاك يومًا يتكلم، وجاريةٌ له حيث تسمع كلامَه؛ فلما انصرف إليها قال لها: كيف سمعت كلامي؟ قالت: ما أحسنَه؛ لولا أنك تُكْثر تَرداده. قال: أردِّده حتىٰ يفهَمَه مَنْ لم يفهمْه. قالت: إلىٰ أن يفهمَه من لم يفهمْه قد مَلَّهُ من فَهِمَه"[3].

ذلك الذي كانت تنكره الجاريةُ من حديث ابن السمَّاك ذلك اليوم؛ لعلَّه أخذ به، فلم يُردِّد الكلام في مواعظه بعد. ونحن نفهم من التكرار هنا كثرةَ التَّرداد، وإعادة المعاني بصورٍ مختلفة وإردافَ بعضها بعضًا ليفهم الناس عنه، فعل ذلك في موعظته تلك، فرأتْ الجارية أنه عيبٌ، مع أنَّ الكلام في نفسه حَسَن؛ وهي ترمي بذلك في نقدها إلىٰ مراعاة أحوال المخاطَبين، وذلك شأن الفنِّ الخطابيّ: أنه لا ينظرُ إلىٰ النصِّ وحدَه، بل تَعْنيه هيئة المخاطَبين، وأحوالُهم، وقدرُ تأثير الكلام فيهم.

---

(١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، أبي الفتح ضياء الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصليّ ٢/ ١٥٨ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة مصطفىٰ البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ).

(٢) انظر: في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، للدكتور سعد مصلوح ص١٥٤ (مجلس النشر العلمي، الكويت ٢٠٠٣م).

(٣) البيان والتبيين، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر ١/ ١٠٤ (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت).

ويعنينا هنا كذلك أنَّ ابن السماك من ذلك النوع الذي يُحبُّ أن يجوِّد طريقته، بدليل سعيه إلىٰ واحدةٍ من مستمعيه وسؤاله عن رأيها، وهي جاريته الحصيفة التي يدل كلامها علىٰ علمٍ وعقل.

وثمة فرقٌ بين إعادة الكلام وترداد المعاني بألفاظ مختلفة، وبين تكرار اللفظ نفسه أو الألفاظ نفسها لأغراض. وثمة فرقٌ بين التكرار المملول مع ذلك والتكرار المتقبَّل أو المستحبّ. إنَّ الأول حشْوٌ في الكلام، يُغني بعضُه عن بعض. والثانيَ جوهرٌ في الكلام يُغني المعنىٰ، أو يتمُّه ويُجلِّيه باللفظ. لقد ذهب بعض البلاغيين الجدد إلىٰ أن بعض العناصر في موضوعٍ ما تحتاج إلىٰ الترديد والتطويل، ذلك أن اعتماد التكرار لإبراز شدَّة حضور الفكرة المقصود إيصالها والتأثير بها؛ هو طريقة من طرق العرض الحِجاجيّ[1].

انظر إلىٰ ابن السماك وهو يكرِّر لفظ "يُذْنب" في قوله: "أصبحت الخليقة علىٰ ثلاثة أصناف: صنفٌ من الذنب تائب، موطِّنٌ لنفسه علىٰ هجران ذنبه، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيئة، هذا المبرَّز. وصنفٌ يُذْنب ثم يندم، ويُذْنب ويحزن، ويُذْنب ويبكي، هذا يُرجَىٰ له ويُخاف عليه. وصنفٌ يُذْنب ولا يندم، ويُذْنب ولا يحزن، ويُذْنب ولا يبكي، فهذا الكائن الحائد عن طريق الجنة إلىٰ النار"[2]. انظر إليها تجدها -وقد جاءت ستَّ مرَّاتٍ في جملتين- مما لا يُستغنىٰ عنه، فلو حُذفتْ واحدةٌ منها ضلَّ المعنىٰ، وهي في نفسها مرادةٌ ومتعمَّدة، وكأنَّ

(١) انظر: في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة ص٣٥ (مسكلياني للنشر، تونس، ط١/ ٢٠١١م).

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

الخطيب يريد أن يقول لموعوظه: إن كثرة الذنب لا تُغلق باب التوبة؛ ما دام القلبُ صادقًا.

وعلىٰ هذا النمط من الإلحاح علىٰ اللفظ، ليستنفد أقصىٰ ما فيه من معنىٰ، يكرِّر صيغة الإخبار بـ"كَمْ"، في قوله: " أيْ أخي: كَمْ من مذكِّر بالله ناسٍ لله! وكَمْ من مخوف بالله جريء علىٰ الله! وكَمْ من داعٍ إلىٰ الله فارٌّ من الله! وكَمْ من قاري لكتاب الله [منسلخٌ][1] من آيات الله!"[2].

وهو في كل إخبارٍ يُذكِّر بالله بتكرار اسمه العظيم "الله"، الذي أورده ثماني مراتٍ؛ ليستحضر الموعوظُ جلالَ الله وعظمتَه؛ ولا ينساه إن هو حاول مخاتلةً أو مرواغة. ومن هنا يقع التكرار موقع الحُسن، الذي يُحمد للخطيب ولا يُذمّ.

إن الصلة بين التكرار أو الترداد والخطابة قوية، وقد احتفل به الخطباء واعينَ بأهميَّته رافدًا إقناعيًّا في الكلام، يترك أثره المعروف عندهم في المخاطبين[3].

وفي نحو هذا من عَصْر المعنىٰ، حتَّىٰ ليحفظه المستمع، ويثبت في جنانه؛ تكرارُه لفظة (القِلَّة)؛ ليدلَّ بها علىٰ فقر الحياة الدنيا، وأنَّ من يتمسَّكُ بها إنما خاسرٌ لا محالة، وذلك في قوله: "إنما الدنيا أَوَّلُها إلىٰ آخرها قليل، إنَّ الذي يبقىٰ

(١) في الأصل: "ينسخ"، وهو تصحيف، والرواية الصحيحة للفظة وردت في: إحياء علوم الدين، للغزالي، أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي ١/ ٨٩ (دار المعرفة، بيروت).

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦

(٣) انظر: الحِجاج في الشعر العربي، للدكتورة سامية الدريدي ص١٧٤.

منها في جنب الذي مضىٰ قليل، وإنَّ ما لكَ منها قليل، وما بقي إلا قليل من قليل"(١).

٨- التَّصْوير:

لم يُخلِ ابنُ السماك وعظه من الصورة، ولكنه كان يستعملها لا علىٰ سبيل الشاعريَّة والتخييل كما يصنع الشعراء أو أرباب الكتابة الترسليَّة من أمثال عبد الحميد، كلا، بل كان يوظِّفها بما يخدم أهدافَه من مواعظه؛ استخدامًا ضيقًا محدودًا، ولكنه مفيدٌ في أداء رسالته المبتغاة من وعظه، وقد ذهب أرسطو إلىٰ أن الأصل "أن تكون الألفاظ التي تتركب منها الخطابة ألفاظًا أصليَّةً مناسبة، وأن تكون الاستعارات وغيرها تدخل فيها كالأبازير"(٢). وقد قال في موضعٍ آخر من كتاب (الخطابة): "واستعمالُ الاستعارات والمجاز في الأقوال الموزونة أليقُ من استعمالها في الأقوال المنثورة، ومناسبتها للكلام النثرِ المرسل أقلُّ من مناسبتها للشعر... فإن الخطابة مُعَدَّةٌ للإقناع، والشعر ليس للإقناع والتصديق، ولكن للتخييل"(٣).

إننا لا يمكن أن ندَّعي خُلُوَّ الأدب النثريّ من الشاعريَّة، فذلك مما يقعد بالنثر عن أداء مهمته حتىٰ لو كانت إقناعيَّةً في الأصل؛ فإنَّ من المعروف أنه "قد

(١) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

(٢) الخطابة لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٢٠٤.

(٣) الخطابة لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٢٠٣.

يعرض لمستعمل الخطابة شِعْرِيَّةٌ، كما يعرض لمستعمل الشعر خطابيَّة..."[1].

فالأمر ليس بحدودٍ لازبةٍ مضروبة بين الفنَّين.

ومن هنا وجدنا ابن السماك يستغلُّ العنصر التصويري -وهو أقربُ إلىٰ الشعر منه إلىٰ الخطابة- يستغلُّه ليكون وعظُه أوقعَ أثرًا في نفوس مخاطبيه.

ومن الأمثلة التصويرية التي وقفنا عليها في نثره، نرىٰ للاستعارة قصبَ السبق في ألوان الصورة المختلفة عنده، وبعض هذه الاستعارات قريبٌ مباشر لا يحتاج إلىٰ كبير تأمُّلٍ أو استخراج، وهو مع ذلك قويٌّ في التعبير عن المعنىٰ المراد، كقوله مثلًا: "من امتطىٰ الصبر، قويَ علىٰ العبادة... ومن أهمَّته نفسُه لم يولِ مرمَّتها غيره"[2]. فالصبر رَحْلٌ يحمل الإنسان ليقوىٰ في الرحلة علىٰ بلوغ الغاية من حياته، وهي عبادة الله عز وجل. والنفسُ موطنٌ للفساد والعَطَب، وليس لأحدٍ أن يُصلحها من الناس ويسدَّ خَلَلها إلا صاحبَها نفسه، الخبيرَ بما فيه من مواطن الخلل، ومواقع الزَّلَل.

ومن هذا القريب أيضًا قوله يخوِّف بالله عز وجلّ: " فاعلم أنك بعينه؛ ليس تخرج من سُلطانه إلىٰ سلطان غيره، ولا من ملكه إلىٰ ملك غيره"[3]. إذ خيَّلَ سُلطانًا لغير الله يُظَنُّ أنه يُخرَجُ إليه، ومُلكًا لغير الله يخالُ أنه قد يُغني شيئًا، والسلطانُ كلُّه والـمُلْكُ لله عز وجلّ؛ فهو يُشبِّه قوة الخلق بسلطان مزعوم،

(١) الخطابة لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا) ص٢٠٤.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٦.

وملكَهم بمُلكٍ موهومٍ لا وجود له في الخارج؛ ثم حذف المشبَّه، وأبقىٰ المشبَّه به علىٰ سبيل الاستعارة التصريحية.

ويُشبِّه القلوب التي لا تستجيب للموعظة، بالزقّ المنقوب، لا يُمسِك شيئًا من الحكمة والموعظة: "إن الزّق إذ نُقب لم يصلح أن يكون فيه العسل، وإن قلوبكم قد نُقبت فلا تصلح فيها الحكمة!"(١).

فهذه الاستعاراتُ ونحوُها مما لا يستوقف الجمهور ليفحص أطرافَه، أو ليستخرج ما فيه من التراكب الخيالي، أو التصوير البعيد، كلا؛ إنها من ذلك النوع الاستعاريِّ السريع، الذي يفهمه عامة الناس أولَ وهلة، وهذا النوع من الاستعارات هو الملائم لمقام الخطابة، ذلك المقام الذي لا يحسُن به أن يقطع الجمهور عن الخطبة، وإلا عُدَّ ذلك عيبًا في الخطيب وفي الخطبة.

وقد يجنحُ ابنُ السمَّاك إلىٰ التشخيص؛ ليُقيم الأشياء أمام المخاطبين تتحرَّكُ وتتصرَّف، كأنها بُثَّ فيها الروح، ما يكون أثرُه كبيرًا في نفوس المخاطبين، كقوله يمثِّل صنيع الآخرة بمن آثر الدنيا: "من ذَوَّقتْهُ الدنيا حلاوتَها بركونٍ منه إليها، أذاقته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها"(٢). فكأنَّ الدنيا والآخرة نِدَّان لا يجتمعان، وخَصْمان لا يتآلفان؛ وعلىٰ المرء أن يختار لنفسه.

وهو يُشبِّه لسان الواقع في أعراض الناس بالسَّبُع الذي ينهش كلَّ مَنْ مرَّ به، لا يعرفُ رحمةً ولا معروفًا؛ يُصوِّرُ ذلك بصورةٍ استعاريَّةٍ يستغلُّها ليبنيَ عليها موعظَتَه، ثم يعضُدُها بصورةٍ أخرىٰ من الاستعارة هي صورةُ (النَّبْش)، وإنما

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٧.

(٢) سراج الملوك، للطرطوشي ص١٢٠.

تنبش الكلاب؛ فكأنَّ المغتاب كلبٌ يأكُل لحومَ الناس أحياءً وأمواتًا، وذلك في موعظته التي يقول فيها: "سَبْعُك بين لَحْييك، تأكل به كلَّ من مرَّ عليك، قد آذيتَ أهل الدُّور في الدُّور، حتىٰ تعاطيْتَ أهل القبور، فما ترثي لهم وقد جرىٰ البِلىٰ عليهم، وأنت ها هنا تنبشهم، إنما ترىٰ أن نبشهم أخذ الخرق عنهم، إذا ذكرت مساويهم فقد نبشتهم..."(١).

وهو في رثائه الباذخ لداود الطائي ينهال بالصور من كلِّ صوب، صور تتلون خلف ظلالٍ كثيفةٍ من الإيقاع والمقابلات المتوالية، بما يمثِّل منظومةً فنيَّةً كثيفة، تحتاج في تفصيلها إلىٰ درجات من التحلي، في الصوت والمعاني والصورة، يقول: "يا داودُ، ما أعجبَ شأنَك من أهل زمانك! أهنْتَ نفسَك وأنت إنما تريد إكرامَها، وأَتْعبتها وإنما تريد راحتَها، أَخْشَنْتَ المَطعم وإنما تريد طَيِّبَه، وأَخْشَنْتَ الملبس وإنما تريد لَيِّنَه، ثم أمتَّ نفسَك قبل أن تموت، وَقَبَرْتَها قبل أن تُقبر، وعذَّبْتَها قبل أن تُعذَّب، وأَتْعَبت العابدَ من بعدك"(٢).

وهذه الصور مع تواليها لا تشُقُّ علىٰ الذهن؛ فهي حينئذٍ صالحةٌ في مقام الخطابة الرثائية، مستدرَّةٌ للحُزن والتَّبجيل والإجلال.

وقد يذهب ابنُ السمَّاك إلىٰ رسم صورٍ تمثيليَّة، يبثُّ من خلالها الروح في الجوامد، ويُحدث مشهدًا مسرحيًّا قصيرًا يقصد من خلاله نهايةً مفاجِئةً صادمة، نهايةٌ تستحقُّ أن ننعتها بالدراميَّة، يقول: "هبِ الدنيا كلَّها في يديك، ودنيا أخرىٰ

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٣٧٧.

مثلَها ضُمَّتْ إليك، وهبِ المشرق والمغربَ يجيء إليك؛ فإذا جاءك الموتُ فماذا بين يديك"[١].

وقد يختار صورًا حقيقيةً وصفيَّة، يلقي من خلالها الضوء علىٰ أجزاء بعينها تورث الزُّهد، وتُعين علىٰ فهم حقيقة الدنيا، من ذكر لابيضاض الشعر، وتجعُّد الوجه، وانحناء الظهر... إلخ، يقول:"ما ينتظرُ من ابيضَّت وَفْرتُه بعد سوادها، وتكرَّش وجهه بعد انبساطه، وتقوَّس ظهرُه بعد انتصابه، وكلَّ بصره، وضعُفَ ركنه، وقلَّ نومه، وبليَ منه شيء بعد شيء في حياته؟! فرحم الله امرأً عقل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه"[٢].

***

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(هـ) البناءُ الإيقاعيّ:

يسكب ابن السَّمَّاك مواعظه في قوالب موسيقية لا تُخْطئها الأذن، وهي من أهم وسائله لأداء تلك المواعظ، والموسيقىٰ في النثر حاضرةٌ حضورًا لا ينكره ذو ذائقة، بل إنها إنْ اختلَّت نبا المعنىٰ، ونبا الكلام في سمع المخاطب، فنزلتْ رُتْبَتُه أو اختلَّ معناه في نفسه.

ونحن نرىٰ ابنَ السَّمَّاك من الـمُحْسنين في مَوْسَقَة كلامهم، بما يكون فيه حَذِرًا من الوقوع في دائرة التكلُّف، بل يرتفع حينئذٍ بكلامه ليمنحَه البلاغة المرجوَّة من سياق تلك الإيقاعات المموسَقة.

لقد عرفنا عناية ابن السماك الفائقة بالإيقاع في نثره من تلك القِطع النثرية المتفاوتة الحجم، التي وصلت إلينا من كلامه. وهو يمزج فيها عنايته بالإيقاع بعنايته وهو يصوغ المعنىٰ، أو هو يحاول أن يجعل الإيقاع معينًا علىٰ أداء المعنىٰ، ونحن لا نفرِّق بينهما، ولكن نُريد أن نفصِّل القول في هذا العنصر لنبيِّن تأثيره في إبلاغ ما يريده ابنُ السماك من بلاغٍ لرسالته الدعوية في وعظ الناس.

نستطيع أن نحصي من صور الإيقاع في نثر ابن السَّمَّاك ثلاثَ صور لها وقعٌ كبيرٌ في كلامه، هي: السَّجع، والتقسيم، والمماثلة، وهي أسماء من وادي البلاغة العربية القديمة، وقد يحلو لبعض المعاصرين أن يتحرر من حدوديَّة المصطلح، فيسميها مُطْلِقًا: "إيقاعًا وتلوينًا صوتيًّا"(١)؛ لكي يُدخل فيها من التحليل ما لا ينطبق عليها من المصطلح العربيِّ القديم، كما في التقسيمات الصوتية التي سنستظهرها عند ابن السماك، وكما في الموازنة التي سوف نُدخل تحتها كل ما

---

(١) الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف ص١٦٩.

فيه تعادلٌ نَغَميّ، من غير التقيُّد بالتفريق بين المماثلة والموازنة والازدواج ونحوها مما نُصَّ عليه في الحقل البلاغيّ. وهذا بيانٌ لكل صورةٍ من تلك الصور الإيقاعيَّة:

١ - السَّجْع:

إنه يمكننا تقسيم سجع ابن السماك علىٰ درجات، من الأدنىٰ إلىٰ الأعلىٰ، أو قل: من اليُسْر إلىٰ التركيب والجُهد في الصناعة.

فإذا بدأنا بالسجع القليل الخفيف غير المتكلف، وجدناه الأصل في السجع عنده -إنْ هو سجع- من نحو قوله في سجعةٍ خاطفة: "هِمَّةُ العاقل في النجاة والهرب، وهمة الأحمق في اللهو والطَّرَب"(١). وهذه سجعة إلىٰ ما فيها من الازدواج، لا تُجهد مُنشئًا أو مستمعًا.

ومن هذا الخفيف اليسير قولُه لرجل: "تبارك من خلقك: فجعلك تبصر بشحم، وتسمع بعظم، وتتكلم بلحم"(٢). فهذا سجعٌ كأنما لا يُسمع، فهو خفيفٌ غيرُ متكلَّف، لا حشو فيه؛ لموافقته المعنىٰ في التقسيم، فالإنسان: شحمٌ، ولحمٌ، وعظم. ويُذهب أثر هذا السجع الموسيقي تعلُّق كل فاصلةٍ فيه بما بعدها في المعنىٰ تعلُّقًا شديدًا، فالقارئ لا يقف عليها غالبًا بالسكون، بل يقف عليها بالتنوين -إن وقف- علىٰ نيَّة الوصل؛ لقصر الجمل المكوَّنة من لفظين ظاهرين، ولعُمق المعنىٰ الذي يصرف السمع عن تأمُّل الإيقاع إلىٰ تأمّل ما وراءه. إنَّ

---

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي ١/ ٢٥٩.

المعنىٰ هنا غالبٌ علىٰ الصوت، ومهيمنٌ عليه، وتلك سمةٌ لا تخفىٰ في نثر ابن السمَّاك.

ومن هذا النوع الذي يغيب فيه التأثر بالسجع، مع أنه موجود؛ السجع المعتمد علىٰ تكرار لفظةٍ بعينها في القافية[1]؛ فالبلاغة فيه في التَّكرار لا في السجع، كقوله: "إنما الدنيا أَوَّلُها إلىٰ آخرها قليل، إنَّ الذي يبقىٰ منها في جنب الذي مضىٰ قليل، وإنَّ ما لكَ منها قليل، وما بقي إلا قليل من قليل"؛ لكنَّه يُكمل هذه الموعظة بسجع ظاهر فيقول: "وقد أصبحتَ يا بن آدم في دار الشِّراء ودار الفِدَاء، وغدًا تصيرُ إِلىٰ دار الجزَاء ودار البَقَاء"[2]. وهو سجع داخلي، أعني به تكرار صوت الفاصلة في لفظةٍ داخل الجملة، في موضعٍ مماثلٍ للجملة المناظِرة، كالهمزة الممدودة في هذا المثال. وهو مثالٌ نادر في نثره، لا يُقاسُ عليه.

ومن السجع السَّهل الذي لا عَمل فيه كبير، السجع بالضمائر: كالسجع بالألف والتاء في جمع المؤنَّث الذي خُتم بهما؛ فهو سجعٌ يُحدثه الجمع لا اللفظ، كقوله: "إن الله ملأ الدنيا من اللذات، وحشاها بالآفات، ومزج حلالها بالمؤونات، وحرامَها بالتبعات"[3].

(١) وبعض أهل البلاغة يذهب إلىٰ أن شرط حسن السجع اختلاف قرينتيه (أي جملتيه) في المعنىٰ، وقيل: ليس بشرط (انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٦٥٤).

(٢) المجالسة وجواهر العلم ٤/ ٢١٢.

(٣) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

إنه سجعٌ أعانه عليه جمع الإناث المختوم بالحرفين، فلولا هذا الجمع لَعُدِم السجع، ولذلك فإنَّ النفس لا تستشعرُ فيه قوة السجع بالمفرد، أو قوة السجع بغير هذا الجمع.

ومثله في اليُسر السجعُ بِهاء الضمير؛ إذ لا تُصنِّفه الأذن التي اعتادت القافية سجعًا في الحقيقة؛ ولأنَّ ميزان الشعر لا يعدُّ الهاء الساكنة أو هاء التأنيث الساكنة روِيًّا، والأذن العربيَّة تلتقط مقاييسها النَّغَميَّة من الشعر غالبًا، ولذلك لا نستشعر كبير شيءٍ من السجع في قوله مثلًا: "حتىٰ متىٰ بلغ الواعظون أعلام الآخرة؟ حتىٰ والله لكل نفس ما عليها واقفة، وكأنَّ العيون إليها ناظرة"(١)؛ بل لعل هذا السجع قد أتىٰ بنقيض قصيده، فأحدث اضطرابًا في النفس، التي كانت تنتظر سجعةً محقَّقة اعتادت مثلَها، فإذا بها يَخيبُ ما كانت ترجو، فلا هي سمعت كلامًا مُطْلقا، ولا هي ارتاحت إلىٰ سجعةٍ موسيقيَّةٍ تطربُ لها.

ونحن نرىٰ أنَّ مثل هذا النوع من التكوين السجعيّ لا يؤدِّي غايتَه عند قومٍ من أصحاب الأذن الموسيقيَّة؛ لأنه سيصرفُهم عن المعنىٰ إلىٰ اللفظ الـمُشْكِل، أعني المشكلَ إيقاعًا لا مضمونًا. وهذا نوعٌ من النظم مما يُعاب عندي علىٰ ابن السَّمَّاك.

لقد علم ابنُ السَّمَّاك أنه ليس من أصحاب السَّجع، وأنَّ السجع ليس من مذهبه، فلم يجعله من همِّه، ولكنه حين يُجرِّب استعمالَه في بعض المواقف يكون كالمحاذر الذي يخشىٰ الخوض؛ خذ مثالًا آخر علىٰ ذلك من قوله:

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

"عجبًا لصغيرٍ حقيرٍ إلىٰ فَناءٍ يصير، غلب علىٰ كثيرٍ طويلٍ دائمٍ غيرِ زائل". فهذا سجعٌ داخليٌّ في جملة واحدة: "صغير، حقير، يصير"، كاد أن يكمله ويَصِلَه في الجملة التالية في قوله: "كثير"، ولكنه لما أحسَّ من نفسه جنوحًا إلىٰ ما ليس من مذهبه، وخشي من الانزلاق في اللفظيَّة والتكلُّف، انصرف عنه إلىٰ كلامٍ مرسلٍ منطلقٍ من قيود السجع.

لقد خاف ابنُ السماك أن يُفسد السجعُ عليه معناه، بل خاف أن يُفسد عليه وعظه حين يَقَرُّ في الأسماع أنَّ الشيخ الواعظَ إنما يتوجَّه إلىٰ اللفظ أكبرَ مما يتوجَّه إلىٰ القلب. وهذه فطنةٌ من الأديب تُحسب له.

ولكنه قد يزلُّ فيسقط في التكلُّف، حين يُريد أن يكون ساجعًا فلا يوفَّق، وقد وجدنا علىٰ هذا مثالًا يتيمًا في نثره، وهو قوله: "فإني كنت حينذاك وأنا مسرور مسبور، وأنا فيها مغرور، ذنبٌ ستره عليَّ فقد طابت النفس به كأنه مغفور، ونعمة أبلاها فأنا بها مسرور، كأني فيها علىٰ تأدية الحقوق مشكور، فيا ليت شعري ما عواقب هذه الأمور"(١).

لقد جفَّ ماء الكلام في هذه القطعة لأنه جعل المعنىٰ تابعًا للفظ، ففقد جودة السجع(٢). ومثل هذا التمحُّل في القول قليلٌ جدًّا في نثره، ولا يمكن اتخاذه حُكْمًا نحكم به عليه.

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥.

(٢) انظر: بغية الإيضاح، لعبد المتعال الصعيدي ٤/ ٦٥٥ (مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/ ٢٠١٧م).

علىٰ أنَّنا لا نعدم في عظات ابن السماك سجعًا متعمَّدًا جيِّدًا فيه عَمَلٌ وطول، ومن أهم الأمثلة علىٰ ذلك قولُه متفنِّنًا:"يا أمير المؤمنين، إنك تموت وحدَك، وتُقْبرُ وحدَك؛ فاحذر الـمُقامَ بين يدي الجبَّار، والوقوف بين الجنة والنار، حينَ يُؤخذ بالكَظْم، وتزلُّ القدم، ويقع الندم؛ فلا توبةٌ تُنال، وَلا عثرةٌ تُقال، ولا يُقبل فداء بمال"(١).

إنه سجع متعمَّدٌ، في جملٍ قصارٍ سريعة، كأنها الطَّرْقُ علىٰ الرأس، مقصودٌ بها زلزلة القلب. وهذا السجع في جملتين جملتين، أو ثلاثٍ ثلاث؛ لا يُجاوز ذلك. وليس معنىٰ أنه متعمَّدٌ أن فاصلتَه مجتلبة، كلا بل لقد نجح الواعظ في أداء سجعه من غير اجتلابٍ لفاصلته؛ فلا كلمةٌ غريبة، ولا كلمةٌ مُقْحمةٌ في سياقٍ ليستْ له، ولا كلمةٌ ضعيفة في موضعها. وأيضًا لا جملةٌ جاء بها من أجل فاصلة. ومن أجل هذا نحكم بحُسن سجعه هنا، ولا نراه بديعًا يُثقل كاهل المعنىٰ.

ومثله –في القِلَّة– قولُه ساجعًا سجْعًا مفاجئًا لم نعتده منه: "يا أبا بكر: بلغتَ غاية الائتمار، حيث مدحك الملك الجبار، فقال سبحانه: "إذ هما في الغار". يا عُمر: لم تكن واليا، إنما كنت والدا. يا عثمان: قُتلت مظلوما، ولم تزل مدفونا. وما قولك فيمن وحد الله طفلًا صغيرا، حتىٰ توفي كهلًا كبيرا، فهذا صاحب الغار، وهذا إمام الأعصار، وهذا أحد الأخيار، مدحهم الملك الجبار، وأسكنهم دار الأبرار"(٢).

---

(١) البداية والنهاية ١٠/ ٢٣٦.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢١٠-٢١١.

أليس هذا عجيبًا فيما تصوَّرناه من طريقة ابن السماك في صوغ مواعظه؟ بلىٰ، إنه شيءٌ قليل لا يُمكن أن يعدَّ ظاهرةً أو يُقاسَ عليه.

ولعل مثل هذه الطريقة السجعيَّة النادرة عنده مما كان يُوافق ذَوْقَ العصر، من أنَّ النثر صار فنًّا له قُرْبٌ من الشعر وقد صنع به عبد الحميد ما صنع[1]، فربما مالَ الناسُ إلىٰ قافيةٍ كقافية الشِّعر، وجملٍ متوازنةٍ كشطري الشِّعر. وخير ما يمثِّل لنا هذا قوله: "كن لهواك مسوِّفا، ولعقلك مُسْعِفا، وانظر إلىٰ ما تسوءُ عاقبتُه؛ فوطِّن نفسك علىٰ مجانبته، فإن ترك النفس وما تهوىٰ داؤُها، وتركَ ما تهوىٰ دواؤُها؛ فاصبر علىٰ الدواء، كما تخافُ الداء"[2].

حقًّا إنه نثرٌ، ولكنَّ موسيقاه وجرسَه فيه تشبُّهٌ بالشعر، وإن كان ليس به، كأنه يُنشدُ منظومةً في الآداب، لتُحْفظ، أو كأنه يتغنىٰ بها في موعظته.

٢- التَّقْسيم:

يحتاج التقسيم[3] إلىٰ تدبُّرٍ وتروٍّ وإعدادٍ من المنشئ، وهو ألوان: منه ما يكون قريبًا يسيرًا لا يستهلك عملًا، أو لا يستهلك عملًا كبيرًا، ومنه ما هو صَنْعةٌ وتفنُّن.

---

(١) إذ تتوافر في أدبه الألوان الموسيقية توافرًا شديدًا ولا سيَّما في التوازن والازدواج والسجع والتقابل (انظر: نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، للدكتور حسين نصار ص١٥٥ (مكتبة الثقافة الدينية، ط١/ ١٤٢٢هـ).

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي ص١٩.

(٣) التقسيم عند البلاغيين: "ذكر متعدد، ثم إضافة ما لكل إليه علىٰ التعيين" (بغية الإيضاح ٤/ ٦٠٥). ونحن سنتوسَّع فيه فندخل فيه كل ما فيه تصنيف علىٰ أقسام. وهذا يسميه البلاغيون بأسماء مختلفة سوىٰ التقسيم، منها: الجمع، والتفريق، والجمع مع التفريق، والجمع مع التقسيم، والجمع مع التفريق والتقسيم، واللَّفّ والنشر (انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٦٠٠-٦٠٩)؛ بما هو معروف من ولع البلاغيين بالتفريع للقواعد؛ لذا لن نشغل

فمن اليسير القريب قول ابن السماك: "قَطَعَ قلوبَ العارفين بالله ذِكْرُ الخلوديْن: الجنة والنار". إنه تقسيم صغير يجري علىٰ البديهة.

وهناك التقسيم المنطقيّ المرتَّب، الذي نستطيع تصويره علىٰ الصورة الكتابية الحديثة من: عنوان، وأقسام مرقَّمةٍ، ونتائج كأنها العناوين الفرعية، علىٰ هذا النحو:

"أصبحت الخليقة على ثلاثة أصناف:	[عنوان عام]
١- صنفٌ من الذنب تائب، موطِّنٌ لنفسه علىٰ هجران ذنبه، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيئة. هذا المبرَّز.	[تفصيل الصنف الأول] [عنوان فرعيٌّ أول]
٢- وصنفٌ يُذنب ثم يندم، ويذنب ويحزن، ويذنب ويبكي. هذا يُرجىٰ له ويُخاف عليه.	[تفصيل الصنف الثاني] [عنوان فرعيٌّ ثانٍ]
٣- وصنفٌ يُذنب ولا يندم، ويُذنب ولا يحزن، ويُذنب ولا يبكي. فهذا الخائن الحائد عن طريق الجنة إلىٰ النار"[1].	[تفصيل الصنف الثالث] [عنوان فرعيٌّ ثالث]

إنه ها هنا كأنه يكتب كتابةً، لا يُلقي شفاهةً، بل كأنه يكتب ويُنظِّم مكتوبه علىٰ طريقةٍ منهجيَّةٍ منضبطة.

ومن مثاله هذا النوع أيضًا قوله وهو يُقسِّم أحوال المتكلِّمين في حقِّ إخوانهم بسوء: "إنه ينبغي لك أن يدلك علىٰ ترك القول في أخيك ثلاثُ خلال:

البحث بمثل هذه التشعيبات، بل سنكتفي بالمعنىٰ العام الذي يجمعها وهو التقسيم. وقد ذهب القزويني إلىٰ أن التقسيم أعمُّ من غيره (انظر: بغية الإيضاح ٤/ ٤٠٦).

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

أما واحدة: فلعلك أن تذكره بأمرٍ هو فيك؛ فما ظنك بربِّك إذا ذكرت أخاك بأمر هو فيك؟ ولعلك تذكره بأمرٍ فيك أعظم منه؛ فذلك أشد استحكامًا لمقته إياك، ولعلَّك تذكره بأمرٍ قد عافاك الله منه؛ فهذا جزاؤه إذ عافاك، أما سمعت: ارحم أخاك، واحمد الذي عافاك؟"[١].

وهناك من التقسيم النوعُ الفنِّيُّ الذي يحشد له الخطيب نفسَه وعقلَه، كهذه الموعظة من ابن السماك التي يقول فيها: "الناس عندنا ثلاثة: زاهدٌ، وراغبٌ، وصابر. فأما الزاهد فلا يفرح بما يؤتىٰ منها، ولا يحزن علىٰ ما فاته منها. والصابر القلبِ منها مثلان: فهو في الظاهر زاهد، وفي الباطن صابر، ما أشبهه بالزاهد! وليس هو به. وأما الراغب فأولئك في خوض يلعبون، مُفْصِحون لا يشعرون"[٢].

إنه بإمكاننا تمثيل التركيب العميق لهذه الموعظة بصورة الخرائط أو الجداول إن شئنا؛ ليستبين ما فيها من جُهد العقل المنتج لمثل هذه التقسيمات، ولكننا سنكتفي بالمثال الذي مرّ.

إن هذا النوع من الإيقاع التنغيمي لا يعتمد علىٰ الموازنة المحدِثة للتعادل النَّغميّ، بل علىٰ التنويع النَّغَمي القائم علىٰ التقسيم، طُولًا وقِصَرًا، بدايةً ووسَطًا ونهاية؛ فالتقسيم هنا ليس موسيقىٰ مرتَّبة متشابهةً مكرَّرة، بل موسيقىٰ مركَّبةً من أجزاء موسيقية مختلفة، ففيه غِنًىٰ إيقاعيٌّ لا تخطئه الأذن إن أُخِذ جملةً واحدة، حين يُفصل بينه بسكتاتٍ مُوحيةٍ بالتقسيمات بين أجزاء المعنىٰ.

---

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٦.

(٢) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٤.

فالجزءُ الأول جزءٌ فاتح يمثِّل افتتاح القطعة الموسيقية، وفيه تنغيم قصير بين كل فاصلة: "الناسُ عندنا ثلاثة: زاهدٌ، وراغبٌ، وصابر". إنَّ الوقوف عند علامة ترقيميَّةٍ بما يناسبها من الأداء الصوتيّ يُفيد في مثل هذا الموضع في تمثيل الصورة الموسيقية؛ فالنقطتان بعد قوله "ثلاثة" نواةٌ في القطعة الموسيقية، فينبغي الوقوف عليها بما يفيد العنونة، وأنَّها فاتحة، وأنَّ المعنىٰ مستمرّ، إنه وَقْفٌ علىٰ نية الوصل، يتبعه وقفٌ خفيفٌ كأنه السَّكت علىٰ كل نوع من أنواع الناس الثلاثة. فهذه أجزاءٌ إيقاعيةٌ صغيرةٌ في جملةٍ نغميةٍ واحدة.

ثم يتلو هذا تفصيلٌ لكل جزء من هذه الأنواع في جملٍ موسيقيَّة أطولَ وقد ضَمِن المؤدِّي وقوفنا علىٰ جملته الأولىٰ، واستيعابَنا السَّمْعي والعقليَّ لها؛ فنوعُه الأول في الزَّاهد: "فأما الزاهد فلا يفرح بما يُؤتىٰ منها، ولا يحزن علىٰ ما فاته منها"؛ هو جملةٌ موسيقية ذات شِقّين، أو قُل جناحين يُحْدثان توازنًا أو ازدواجًا في النَّغم، وكأنهما لا خلاف عليهما في الصوت، كما أنه لا خلاف عليهما في المعنىٰ، فهما مريحان لمن يسمعُهما، لا يُحب أن يخالِف فيهما ولا في معناهما؛ حتىٰ لا يَحْدُثَ خلافٌ في اللفظ يتبعه خلافٌ في الصَّوت الذي اطمأنَّ إليه سمعُه، وقلبُه، وارتاحت إليه نفسُه. إنه نوعٌ من الإقناع الصَّوتي، والـمُحاجَّةِ النَّغمية التي ينبغي الوقوف عندها؛ فليس كل حجاجٍ يكونُ بالمعنىٰ العقليّ فحسب، بل موسيقىٰ الألفاظ يكمن وراءها التأثيرُ والاحتجاج والجذبُ كذلك. وهذا بحثٌ لم يأخذ طريقه المأمولَ من الدراسة فيما نعرفه من البحوث العربية.

إنه يمكن عَدُّ الموسيقىٰ "رافدًا من روافد الحجاج من جهة استيلاء ما وُقِّع علىٰ النفوس، وامتلاك الأنغم للأسماع. وما كان أملك للسمع كان أفعلَ باللُّبِّ وبالنفس"(١).

نقول: إنَّ ابن السماك وقد احتج لمعناه نَغَميًّا حتىٰ الآن إنما صنع ذلك لأنه سيُورِد ما قد يُخالَف عليه معنويًّا بعد ذلك من أداء معنىٰ "الصابر"، والتفريق بينه وبين معنىٰ "الزَّاهد"، ولذلك سَيَغْلِبُ معناهُ لفظَه وهو ينغِّم جملَه في حديثه عن "الصابر" لغلبة الاحتجاج العقلي: "والصابرُ القلبِ منها مَثَلان: فهو في الظاهر زاهد، وفي الباطن صابر، ما أشبهه بالزاهد! وليس هو به". إنه يريد أن يكشف لنا وَهْمًا قد نقع فيه في إطلاق معنىٰ الزُّهد علىٰ الصابر، وهو ليس بزاهد حقيقةً، بل ظاهرًا، ولذلك لم يُوازن، بل عمد إلىٰ التفصيل والشرح، في جمل قصارٍ سراعٍ، حتىٰ لا يدع لمخالف فرصةً للمخالفة، بل يُتْبع المعنىٰ المعنىٰ، أو قُل الجزءَ من المعنىٰ الجُزء، حتىٰ يتمَّ له معناه ومُرادُه؛ ولذلك استمعنا إلىٰ جملةٍ من الإيقاع النَّغميّ مختلفةٍ عن جملة الإيقاع النَّغمي في حديثه عن الزاهد، جملةً مثَّلتْ بمهارةٍ وحِرْفةٍ ما أراغه الأديبُ من أدبه.

ثم هو ينتهي في قطعته إلىٰ ما لا خلاف عليه من حديثٍ عن الراغب في الحياة الدنيا، يمثِّله بجملتين كأنهما القرار لكلامه، لا يُحْدِث فيهما من النَّغَم إلا سجعةً يسيرةً لا كبيرَ تصنيعٍ بها: "وأما الراغب فأولئك في خَوْضٍ يلعبون، مُفصِحون لا يشعرون". وهذه النهاية القارَّةُ سَديدةٌ؛ لأنها تنتهي إلىٰ ما يُريح

---

(١) الحِجاج في الشعر العربي: بِنيتُه وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي ص١٢٧.

السامع مما لا خلاف عليه من أمر هؤلاء، ولذا فإنه قد أخَّر الحديث عنه؛ لينتهي كلامُه بما لا ينكَر؛ إذ هو أَثْبتُ في قلب مستمعه. وهذا التأخير مقصودٌ مُخَطَّط له، ألا ترىٰ أنه افتتح كلامه وقد جعله ثانيًا لا أخيرًا: "زاهدٌ، وراغبٌ، وصابر"، وهذا تقسيمٌ منطقي، فعكس الزاهد الراغب، وهذا أقرب إلىٰ السمع حين يُلْقىٰ هنالك في أول الكلام، فالأذن تنتظره ولا تستغربه، إذ يُذكَر الشيء ونقيضُه، فلا خلاف عليه إذن هنا. ولكنه أخَّره في الشَّرح فجعله ثالثًا، وجعل الصَّابر ثانيًا حتىٰ لا ينتهيَ بما قد يُنْكر، أو يُحاججُ أو يُخالَف فيه؛ وهذا التأخير ضامنٌ لصورة وعظه النَّمطية، التي يرومُ لها الاتساق في العقل، كما يَروم لها الاتساق في الأُذُن.

لقد كان للإيقاع الموسيقي عملٌ كبيرٌ في أداء هذه المكنونات الخفيَّة في نفس ابن السَّمَّاك وهو يَعظ، وقد دلَّتنا علىٰ صناعته في اللفظ، وصناعته للمعنىٰ، وهو ما يجعلنا جازمين بأن الرجل من أولئك الذين يعكُفون علىٰ أدبهم: يُنقِّحونه، ويُجهِّزونه، ويُهذِّبونه.

وإذا كان التقسيمُ علىٰ ما لا خلاف فيه فإنه يُجريه علىٰ ظاهره، كقوله: "أصبحت الخليقة علىٰ ثلاثة أصناف: صنف من الذنوب مُوَطِّنٌ نفسه علىٰ هجران ذنبه، لا يريد أن يرجع إلىٰ شيء من سيِّئه؛ هذا المبرور. وصنف يذنب ثم يذنب ويذنب ويحزن، ويذنب ويبكي؛ هذا يرجىٰ له ويخاف عليه. وصنف يذنب ولا يندم، ويندم ولا يحزن، ويذنب ولا يبكي؛ فهذا الخائن الحائد عن طريق الجنة الىٰ النار"(١).

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

ومما هو داخلٌ في هذا الباب ما يُسمَّىٰ عند البلاغيّين الجمع مع التقسيم، "وهو جمع متعدّدٍ تحت حُكم، ثم تقسيمه، أو تقسيمه ثم جمعه"[1]، نجد ابن السمَّاك قد استعمل نحوًا من ذلك وهو يخاطب بقوله الرشيد، بالتقسيم ثم الجمع في قوله: "يا أمير المؤمنين، إنَّ امرءًا آتاه الله جمالًا في خِلقته، وموضعًا في حَسَبه، وبَسَطَ له في ذات يده؛ فعفَّ في جماله، وواسىٰ مِنْ ماله، وتواضع في حَسَبه؛ كُتِب في ديوان الله من خالص أولياء الله!". لقد قسَّم ابن السمَّاك جملته علىٰ معانٍ؛ ثم عاد فردَّ علىٰ المعاني الأولىٰ معانيَ أخرىٰ متعلِّقة، باللفِّ والنَّشْر، فهو لم ينسَ جمله الأولىٰ، بل هو يرتِّب عليها، ما يدلُّ علىٰ إعدادٍ سابقٍ، وتجهيزٍ للموعظة، وما سيسلكه فيها من مسالك القول.

٣- التوازنُ النّغمي:

من أبرز ما في موسيقىٰ بنية الوعظ لدىٰ ابن السماك من نغم، ما نسمعه من إيقاع من إيقاع التوازُن والتواؤُم بين الجمل فيه، وإيقاعات جُمَلِه -بالإضافة إلىٰ ذلك- تمضي هادئةً رهوةً، لا مفاجآت فيها، وهي إيقاعاتٌ منتظرةٌ متوقَّعة، أو قل: مأمولةٌ في أسماع المخاطبين، فهو حين يُحقِّق لهم مُرادَهم في السمع، يأنسون إليه وتطمئنُّ نفوسُهم لموعظته، وتقع منهم غالبًا موقع الإجابة؛ لأنَّ النفوسَ حبيسةٌ لأغراضها وما تطمحُ إليه من الشيء، حتىٰ في المواعظ؛ وهذا أمرٌ عرَفه ابن السَّمَّاك بتخصُّصه وطول دُربته في هذا المجال. نسمع مثلًا موعظةً له لهارون الرشيد، فيها هذه الجمل المنسَّقة في نَسَق إيقاعيٍّ مُطَّرد، بجمل

(١) بغية الإيضاح ٤/ ٦٠٥.

متوازنة[1]، تنتهي بجملة طويلةٍ ختامية، يُنْبِئ طولُها بنهاية الموعظة: "فاتقِ الله في خَلْقِه، واحفظ محمَّدًا في أمتِه، وانصح نفسَك في رعيتك، واعلم أن الله آخذٌ سطواتِه وانتقامَه من أهل معاصيه"[2].

إنها بداياتٌ بمقاماتٍ صوتيَّةٍ متوسطةٍ في كل جملة تنتهي إلىٰ قرارٍ منخفضٍ هادئٍ يُلامس النفس، ثم يزيد من هذه الملامسة هذه الكسرة التي يعقبها سكون هامسٌ في نهايات الجمل: "خلقِهْ، أمتِهْ، رعيتِكْ"؛ كأنما هذه الرِّقَّةُ في الصوت شيخٌ كبيرٌ أو أُمٌّ رؤومٌ تمسح عن جبين ولدها ما لاقاه من عناء المشقَّة والنَّصَب من الدنيا.

ونسمع له قطعةً أخرىٰ، يبنيها علىٰ جمل متعاطفة علىٰ ميزان واحد بسجعة واحدة ينهيها باستفهامٍ استنكاريٍّ أعدَّ له: "هبِ الدنيا كلَّها في يديك، ودنيا أخرىٰ مثلَها ضُمَّتْ إليك، وهب المشرق والمغربَ يجيء إليك؛ فإذا جاءك الموتُ فماذا بين يديك؟!"[3].

ثم هو يُتْبِعُ ذلك في القطعة نفسها بجملٍ متواليةٍ علىٰ إيقاع التعادل النغميّ، يبنيها علىٰ جُزئين متعادلين كالجناحين، من غير سجع جامع، ولكنه يستبدله بأن يضمَّ كلَّ جملةٍ إلىٰ أختها بالتوافق النغمي في سياقٍ شرطيٍّ ناصح، يقول فيه: "ألا

(١) هو ما يسميه البلاغيون: المماثلة، وهي: أن يكون ما في إحدىٰ الجملتين من الألفاظ، أو أكثر ما فيها؛ مثلُ ما يقابله من الأخرىٰ في الوزن دون التقفية (انظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح، لعبد المتعال الصعيدي ٤/ ٦٦٠).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي ٦/ ٣٦.

(٣) تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩.

من امتطىٰ الصبر، قوي علىٰ العبادة، ومن أجمع اليأس استغنىٰ عن الناس، ومن أهمَّته نفسه لم يول مَرَمَّتها غيره، ومن أحب الخير وُفِّق له، ومن كره الشر جُنِّبه"(١).

ونحن نمثل هذا التوازن الإيقاعي مرتَّبًا في جدول، ليسهل علينا تصور بنائه الصوتيّ:

الجملة (الجناح)	وأختها (الجناح الموازن)
مَنْ امتطىٰ الصبرَ	قويَ علىٰ العبادة
ومَنْ أجمع اليأسَ	استغنىٰ عن الناس
ومَنْ أهمته نفسُه	لم يولّ مرمَّتها غيره
ومَنْ أحبَّ الخير وفق له	ومَنْ كره الشر جُنِّبه

ثم هو لم يزل في إيقاعاته المتوافقة المتآلفة، التي تتناسل: جملةً من جملة، لا نشاز فيها، طالت أو كثرت، وهو يعتمد في ضبط كلِّ هذا علىٰ النغم الهادئ المتماثل، الذي يُسْرِعُ به حينًا، ويُبطِّئ به حينًا حين يُطيل جُمَلَه، فيقول: "ألا متأهِّب فيما يوصف أمامه، ألا مستعد ليوم فقره وفاقته، ألا شيخ مبادر انقضاء مدته، وفناء أجله. ما ينتظر من ابيضَّت وَفْرتُه بعد سوادها، وتكرش وجهه بعد انبساطه، وتقوس ظهره بعد انتصابه، وكلَّ بصره، وضعُف ركنه، وقلَّ نومه، وبلي

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

منه شيء بعد شيء في حياته. فرحم الله امرأً عقل الأمر، وأحسن النظر، واغتنم أيامه"(١).

وعلىٰ هذا النحو يمضي في غير قليلٍ من مواعظه، كأنه حين يدخل في الوعظ، ينهمك فيه، حتىٰ لتُفضي به جملةٌ إلىٰ جملة تتلوها، وكلمةٌ إلىٰ كلمة تنبعثُ منها، ولكنه في هذا كله لا يُضِيْع نَغَمَهُ، أو احتباكَ كلماته؛ بل لا نزال نستشعر معه راحةً وهدوءًا كلما مضىٰ في سعيه، كهذه الموعظة الأخرىٰ التي يقولُ فيما يقول فيها: "فلا منتبهٌ من نومته، ولا مستيقظٌ من غفلته، ولا مفيقٌ من سَكْرته، ولا خائفٌ من صرعته... أقسم بالله لو رأيت القيامة تخفق بزلزال أهوالها، وقد علتْ النار مشرفة علىٰ أهلها، وقد وضع الكتاب، ونُصب الميزان، وجيء بالنبيين والشهداء، ويكون لك في ذلك الجمع منزل وزلفىٰ. أبَعد الدنيا إلىٰ غير الآخرة تنتقل؟! هيهات هيهات، كلا والله، ولكن صُمَّت الآذان عن المواعظ، وذهِلت القلوب عن المنافع، فلا المواعظ تنفع، ولا الموعوظ ينتفع بما يسمع!"(٢).

لقد أحسن الشيخُ عبد القاهر حين قال: إنك "لن تجدَ أيمنَ طائرًا، وأحسنَ أوّلًا وآخرًا، وأهدىٰ إلىٰ الإحسان، وأجلبَ للاستحسان؛ من أن تُرسِل المعانيَ علىٰ سجيَّتها، وتدَعَها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإذا هي تُركتْ وما تُريد لم تكتسِ

(١) تاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩-٣٧٠.

(٢) النصُّ مستخلص من المقابلة بين روايتي: حلية الأولياء ٨/ ٢٠٥، وتاريخ الإسلام، للذهبي ١٢/ ٣٦٩.

إلا ما يليق بها، ولم تلبس من الـمَعارض إلا ما يزينُها"[1]، وهذا هو الذي كان يصنعه ابنُ السمَّاك وهو يُلقي مواعظه، يترك المعاني لتختمر في نفسه، ثم يتركها تنثال علىٰ لسانه بما منحه الله من مواهب الوعظ.

وقد فُجع بصاحبه الزاهد داود الطائيّ، فرثاه من حُرْقةِ نفسِه، وأعلىٰ ذكرَه في أدبه، بما قلَّ أن نسمع رثاءً منثورًا مثلَه: عاطفةً، وطولًا، وسبكًا، وإيقاع جملة؛ نسمع عنده التوازن النَّغميَّ في هذا الرثاء وهو ينطلق فيه بعفويَّةٍ ويُسر؛ دلالةً علىٰ الصدق، لا يكاد يتعثَّر أو يتكلَّف، بل ينطلق فيه انطلاق الذي تنثال عليه المعاني من كل صوب، في كل فقرةٍ من فقرات الرثاء، من نحو قوله مثلًا: "ألزمتَ نفسَك الصمت حتىٰ قوَّمتها علىٰ العدل، أهنتها وإنما تريد كرامتها، وأذللتها وإنما تريد إعزازها، ووضعتَها وإنما تريد تشريفها، وأتعبتها وإنما تريد راحتها، وأجعْتها وإنما تريد شِبعها، وأظمأتها وإنما تريد ريَّها، وخشَّنت الملبس وإنما تريد ليِّنه، وخشَّنت المطعم وإنما تريد طيِّبه، وأمتَّ نفسك قبل أن تموت، وقبرتَها قبل أن تُقبر، وعذَّبتها قبل أن تُعذَّب، وغيَّبتها عن الناس كي لا تُذكر..."[2].

وهو يمضي علىٰ هذا النحو الـمُناسب الذي نستشعر معه أنه لن يتوقف، لن يتوقف عن ذكر أحوال صاحبه الجميلة العجيبة، ولن يتوقف عن إنهاء هذا النَّغم السهل المنتظم المحبَّب، الذي يسَّرتْه له المقابلة والمطابقة بين المعاني، فنحن

---

(١) أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني ص١٤ (قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط١/ ١٤١٢هـ).

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٣٦-٣٣٨.

معه في مُتْعةٍ أدبية، وإن كنَّا معه في حُزنٍ علىٰ الميت، وهذا شأن الأدب الجيّد، تعجب له ولصاحبه حتىٰ إن كان الموضوع محزنًا أو مبكيًا(١).

وهو يستمرُّ علىٰ هذا النحو الإيقاعي المسترسل في رثاء داود في المقاطع الأخرىٰ من رثائه، كقوله: "فقهت في دينك ثم تركت الناس يُفتون ويتفقَّهون، وسمعتَ الأحاديث ثم تركت الناس يتحدَّثون ويروون، وخرست عن القول وتركت الناس ينطقون. لا تحسد الأخيار، ولا تَعيب الأشرار، ولا تقبل من السلطان عَطيَّة، ولا من الأمراء هديّة، ولا تدنيك المطامع، ولا ترغب إلىٰ الناس في الصنائع... لا ستر علىٰ بابك، ولا فراش تحتك، ولا قُلَّة يبرد فيها ماؤك، ولا قصعة فيه غداؤك وعشاؤك، مطهرتك قُلَّتك، وقصعتك نورك، وكل أمرك داود عجبًا. أما كنت تشتهي من الماء بارده، ولا من الطعام طيّبه، ولا من اللباس ليّنه؟ بلىٰ ولكنك زهدت فيه لما بين يديك مما دعيت إليه ورغبت فيه، فما أصغر ما بذلت، وما أحقر ما تركت! وما أيسر ما فعلت في جنب ما أمَّلْت أو طلبت!"(٢).

❊ ❊ ❊

(١) انظر: أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب ص٢٨-٣٠ (مكتبة النهضة المصرية، ط١٠/ ١٩٩٤م).

(٢) حلية الأولياء ٧/ ٣٣٦-٣٣٨.

(و) أثرُ الخِطَاب:

مما ينبغي الوقوف عليه في دراسة نثرنا الشفويّ القديم، ما يتركه هذا النثر من أثر في المخاطَب أو المخاطَبين؛ فإذا كانت غاية النثر الإقناع[1] -مع غايات أخرىٰ كالمتعة والمنفعة مثلًا[2]- فإنَّ من دلائل نجاحه في بلوغ غايته ما نسمعه من أثرٍ في نفوس مستمعيه المشافَهين في ذلك الوقت. نعم إنَّ من دلائل نجاح الخطاب كذلك ما يتركه من أثرٍ في نفوس القارئين بعد ذلك بما فيهم نحن؛ ولكننا نريد الوقوف علىٰ آراء بعض مَنْ شوفهوا بهذا الخطاب مشافهةً؛ فإن النثر الخطابي -وجملةُ نثر ابن السماك خطابةٌ تُلقىٰ- لا يُلتفت في تلقيه إلىٰ النصِّ وحدَه، بل إلىٰ أمورٍ أخرىٰ كثيرةٍ حول النصّ: كالخطيب وهيئته ونبرة صوته[3]، والمكان والزمان، والجمهور، غير ذلك. فقد يكون النصُّ جيدًا، ثم تخذله هيئةُ الخطيب، أو يُفسده السياق أو المخاطَب. وهذه كلها أمورٌ تؤخذ في الحسبان في نقد كل أدب شفاهيّ: ألّا يُنزع من سياقه.

والمعلومات التي تصل إلينا عن سياق النثر الشفوي في تراثنا ليست كثيرة في كثير من الأحيان، فيكون الحكم عليها من هذا الجانب قاصرًا، وكلما بلغتنا أخبارٌ مما حول النص زادتْ خبرتُنا بالنصّ، وزاد فهمنا له.

---

(١) انظر: أصول النقد الأدبي ص١٠٤.

(٢) انظر: الأدب وفنونه: دراسة ونقد، للدكتور عز الدين إسماعيل ص١٢ (دار الفكر العربي، القاهرة، ط٨/ ٢٠٠٤م).

(٣) انظر: خطباء اليونان، تأليف ج. ف. دبسون ص٣٦ (ترجمة أمين سلامة، مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة، مؤسسة التضامن العربي، القاهرة ١٩٦٣م).

وابن السمَّاك ليس بعيدًا من ذلك، فإنه قد بلغتنا أخبارٌ قليلة عن سياق مواعظه، بعضها ذكرٌ للمناسبة بعموم، كأن يوصف السياق بأنه في جنازة، أو أنه في وعظ الرشيد أو غيره. ولكنْ من الآثار المهمة في ذلك ما رُوي من أحوال المخاطبين بعد موعظته، سواء أكانت أحوالًا لفظيةً أو عملية.

فمن الأحوال اللفظية إبداء الإعجاب أو الرضا بما قيل، من ذلك مثلًا ما رَووا أنه "دخل ابن السماك علىٰ هارون فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك. فقال: ما أحسن ما قلت!"(١).

إنه لا شك عندنا أن نحوًا من هذا الاستحسان والراحة قد أُبدي بعباراتٍ مختلفة عُقيب مواعظ الرجل، ولكنَّ الرواة يُقصِّرون في رواية ذلك، إلا ما كان من ذي شأنٍ كالرَّشيد مثلًا، ولذا سنجدهم يروون جملة ما وجدناه من آثارٍ في خطاب الرشيد خاصَّة.

أمَّا الأحوال العمليَّة المذكورة لوعظ ابن السمَّاك فأجلُّها أثرُ البكاء، والبكاءُ أعظمُ أثر للموعظة، وأدلُّه علىٰ صدقها، من ذلك ما رواه ابن السماك قال: "لـمَّا طلبني هارون الرشيد قال: تكلم وادعُ، فدعوت بدعاءٍ أعجبه، وقلت في دعائي: "اللهم إنك قلت: "﴿وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ٣٨﴾ [سورة

(١) التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي ص١٢٧ (تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٩هـ).

النحل:٣٨]."، اللهم إنَّا نقسم بالله جَهد أيماننا لتبعثنَّ من يموت، أفتُراك يا ربِّ تجمع بين أهل القسمين في مكان واحد؟! وهارون يبكي"[١].

إنَّ البكاء -كما قلنا- خيرُ أثرٍ تصيبه الموعظة من نفوس الناس، ولا سيَّما إذا كانوا رجالًا، فالرجل أضنُّ شيءٍ بعَبرته، لا يُخرجها منه إلا شيءٌ ذو بال.

ومن حديث البكاء ما ورد بعد أسئلته لهارون بشأن شربة الماء، حتىٰ قال له فيما ترويه بعضُ الروايات: "لو مُنعتْ هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها أكنت تفتديها بالدنيا وما فيها حتىٰ تصل إليك؟ فقال: نعم، قَالَ: فاشرب ريًّا، بارك الله فيك، فلما فرغ من شربه، قال له: يا أمير المؤمنين، أرأيت لو مُنعتَ إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك بالدنيا وما فيها؟ قال: نعم، قال: يا أمير المؤمنين، فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه؟

قال: فبكىٰ هارون واشتد بكاؤه، قَالَ: فقال يحيىٰ بن خالد: يا بن السَّماك قد آذيت أمير المؤمنين، فقال له: وأنت يا يحيىٰ فلا يغرنك رفاهيةُ العيش ولِينُه!"[٢].

ومن أحوال البكاء أيضًا ما رواه أبو المغيرة بن شعيب قال: حضرت يحيىٰ بن خالد البرمكي يقول لابن السماك: إذا دخلت علىٰ هارون أمير المؤمنين فأوجز ولا تكثر عليه. قال: فلما دخل عليه وقام بين يديه قال: "يا أمير المؤمنين،

---

(١) التخويف من النار، لابن رجب ص٢٦٤.

(٢) تاريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي ٣/ ٣٤٧.

إنَّ لك بين يدي الله عز وجل مقامًا، وإن لك من مقامك منصرفًا، فانظر إلىٰ أين منصرفك: إلىٰ الجنة أو إلىٰ النار؟"؛ فبكىٰ هارون حتىٰ كاد يموت!"[١].

إنّه لا ريب هنا في أنَّ النصَّ ليس مكتملًا، وإنما روىٰ الراوي جزءًا منه، وكانت غايته تبيان أثره في نفس الرشيد، فالرواة قديمًا كانوا منتبهين لقيمة هذا الأثر الذي نتحدث عنه، ولا سيَّما في فنٍّ مثل فنِّ الموعظة، الذي يبحث عن هداية الناس، وتغيير سلوكهم إلىٰ الطريق المستقيم، وإعادتهم إلىٰ أنفسهم حتىٰ يعرفوا حقيقتَها، وأصلَها وموئلَها.

إنَّ وصف الأثر في الرشيد بليغٌ جدًّا، حيث لم يكتفِ بذكر البكاء أو شِدَّته، بل إنه بكاءٌ كادتْ نفسه تزهَقُ منه!

ومن مثله هذه الرواية الدقيقة في وصف الأثر حين وعظ الرشيدَ موعظةً بليغةً حتىٰ بلغ قوله: "واعلم أن لك مقامًا بين يدي الله تعالىٰ أنت فيه أذلُّ من مقامي هذا بين يديك؛ فاتقِّ الله في خلقه، واحفظ محمدًا في أمته، وانصح نفسك في رعيتك، واعلم أن الله آخذٌ سطواته وانتقامه من أهل معاصيه.

قال: فاضطرب علىٰ فراشه حتىٰ وقع علىٰ مصلًّىٰ بين يدي فراشه!

فقلت: يا أمير المؤمنين، هذا أول الصفة فكيف لو رأيت ذُلَّ المعاينة؟!

قال: فكادت نفسُه تخرج، وكان يحيىٰ بن خالد إلىٰ جنبه فقال للخصيّين: أخرجوه فقد أبكىٰ أمير المؤمنين. فقال سفيان رحمه الله: لقد أبلغ"[٢].

(١) صفة الصفوة ٣/ ١٧٤.

(٢) شعب الإيمان ٩/ ٥١٣.

ومن آثار وعظه في نفوس المستمعين أنهم لا يملكون عند استماعه إلا تبجيلَه وتقديرَه قَدْرَه، فقد روىٰ محمد بن بكَّار قال: بعث هارونُ الرشيد الىٰ ابن السَّمَّاك، فدخل وعنده يحيىٰ بن خالد البرمكيّ، فقال يحيىٰ: إنَّ أمير المؤمنين أرسل إليك لِما بلغه من صلاح حالك في نفسك، وكثرة ذكرك لربك عز وجل ودعائك للعامة فقال ابن السماك: أمَّا ما بلغ أمير المؤمنين من صلاحنا في أنفسنا، فذلك بستر الله علينا؛ فلو اطّلع الناس علىٰ ذنب من ذنوبنا، لما أقدم قلبٌ لنا علىٰ مودة، ولا جرىٰ لسانٌ لنا بمدحة، وإني لأخاف أن أكون بالستر مغرورا، وبمدح الناس مفتونا، وإني لأخاف أن أهلك بهما، وبقلة الشكر عليهما فدعا بدواة وقرطاسٍ فكتبه إلىٰ الرشيد"[1].

فهذه الموعظة أعجبت الوزير فكتبها إلىٰ الخليفة تقديرًا لما فيها، ولكن ثمَّة من المواعظ ما كتبه الخليفة بنفسه، كقول ابن السماك للرشيد: "يا أمير المؤمنين، إن امرءًا آتاه الله جمالًا في خِلقته، وموضعًا في حَسَبه، وبَسَطَ له في ذات يده؛ فعفَّ في جماله، وواسىٰ مِنْ ماله، وتواضع في حَسَبه؛ كُتِب في ديوان الله من خالص أولياء الله!.

فدعا هارون بدواةٍ وقرطاس وكتبه بيده!"[2].

***

(١) حلية الأولياء ٨/ ٢٠٨.

(٢) التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا ص١٢٧.

خاتمة:

بعد الفراغ من هذا البحث ظهرت مكانة ابن السمَّاك (ت ١٨٣هـ)، في أدب الوعظ، في المدَّة التي عاش فيها في العصر العباسي الأول، في عهد هارون الرشيد (ت ١٩٣هـ)، وظهر فضلُ الرشيد في تحفيز هذا الأدب، وكثرته، وسيرورته. علىٰ أنَّ الرجل كان يعظ الرَّشيد وغيرَه من أصحاب الشأن والعامة، ولعل هذا كان سببًا أكيدًا من أسباب رواية عظات هذا الرجل؛ إذ هو (واعظ الرشيد).

نرىٰ هذه الرواية تتوزع في مصادر مختلفة من كتب التراث العربي: سلوكيَّة زُهدية، أو تاريخيَّة أخباريَّة، أو أدبيَّة، أو كتب متعددة الفنون.

ولكنَّ هذه الرواية –بسببٍ من طبيعتها الخطابية الشفويَّة– قد داخلها اختلافٌ وخلطٌ وزيادةٌ ونقصٌ، وتغيير وتبديل؛ وقفتْ عليه هذه الدراسة، وضربتْ له الأمثلة. فلا يمكن الارتياح لكل نص روي عنه في ألفاظه وتكوينه إلا بعد التوثُّق منه بكافَّة طرق التوثق. وهذا مما يدل علىٰ قيمة المنهج التاريخي حتىٰ بعد عصور التدوين؛ لكثرة وجود الآثار الشفويَّة الممتدَّة عبر القرون، بل هذا قد يصل إلىٰ العصر الحديث كذلك. والرواية الشفوية من سمات الحضارة الإسلامية علىٰ كل حال، ومن الأشياء التي يُجلُّها أبناءُ تلك الحضارة.

وابنُ السماك كان يتَّبع مذهبًا أقرب إلىٰ مذهب السلف الأولين في الزُّهد، وليس علىٰ مذهب من عاصره أو جاء بعده ممن انتُقدوا –وانتقدهم هو– من أصحاب التصوف. ومع ذلك فطريقته في الوعظ لم تكن علىٰ سجيَّتها، بل كانت ذات صنعةٍ لا تخفىٰ في المعاني وفي العبارة.

وقد تكاثرت أسباب براعة ابن السمَّاك في فنِّ الوعظ؛ إذ هو زاهد في نفسه، وقد صحب قومًا من الزَّهاد والواعظين المنتشرين في عصره، وعصرُه نفسُه كان عصر علم ونشاطٍ ثقافيٍّ غزير عزَّ نظيرُه، وقد استطاع الرجل أن يلقىٰ العلماء والأدباء والزهَّاد في موطنه الأول الكوفة، ثم في بغداد فيما بعد؛ فنهل من كل ذلك وأفاد منه، أضف إلىٰ ذلك اطِّلاعه علىٰ الكتاب العزيز والحديث النبوي، ونظره في كتب الأولين من بني إسرائيل.

يُضاف إلىٰ هذا مواهب الرجل الأدبيَّة في الوعظ، وهي خير مواهبه، وقد تمثَّلت هذه المواهب في صورتين: معنويةٍ، وصوغيَّة.

لقد تمكن ابنُ السماك من أن يبرهن علىٰ عقليَّته الحادَّة بصياغة معانٍ معتادة بصورٍ غير معتادة، بل حاول معالجة معانٍ أخرىٰ أراد لها أن تكون طريفة، وهي مَهمَّةٌ عَسِرةٌ من غير شك؛ فكثيرًا ما وفِّق، دلالةً علىٰ انتظام عقله، وحُسن تصوُّره لمعانيه، وربما لم يوفَّق -في رأينا- في مرّةٍ أو مرَّتين، كما بيَّنَّاه في البحث.

ومعاني الوعظ عنده ليست قليلة، بل هي مختلفةٌ ومتعدِّدة، ومناسبةٌ للمقامات التي يكون فيها أمام جمهور وعظه؛ فقد كان يُخاطب كل فئةٍ أو إنسانٍ بما يضمن به التأثير فيه، حتىٰ لا يكون وعظه كلامًا ذاهبًا أدراج الرِّياح. وتلك سِمةٌ أخرىٰ في وعظه: الحرارة والصدق. وهذا الصدق العاطفي -إضافةً إلىٰ العناصر الأخرىٰ الفنيَّة- هو ما يضمن للأديب سيرورة أدبه، وخُلوده، وبقاء الروح فيه والحياة مهما تقادم به الزمن.

وأما الصورةُ الصَّوْغية فقد كانت الطبيعة الشفويةُ غالبةً علىٰ أدبه، ولكنها لم تكن شفويَّةً ارتجاليَّة، بل شفويَّةً يجهِّزُ لها صاحبُها قبل وعظه، باعتراف ابن

السماك نفسه من أنه كان يجهِّز كلامه وعظاته، وبدلالة هذا التركيب العقليّ المنطقيّ الذي تمثَّل في عناصر مختلفةٍ في وعظه: كعناصر الاحتجاج والاستدلال العقلي، والسؤالات، والتوليد والتنمية، والتقسيمات بألوانها، وغير ذلك.

ثم هو ينزع إلىٰ بعض الطبائع التشكيليَّة الأخرىٰ، كالتَّكرار، والمقابلة والمطابقة، والتعجب، والتوكيد، والتصوير الفنّيّ، ثم هو في خلال ذلك يضرب علىٰ أوتار إيقاعيَّة محدَّدة كالتوازن النغمي بما فيه من صورٍ جرسيَّة مختلفة قد تكون سجعًا أو تقسيمًا أو ازدواجًا ومماثلة. علىٰ أنه في كل هذه الزينة الصَّوتية ليس متكلِّفًا ولا سيِّما في السجع، أو فلنقل: إنَّ التكلف السجعيَّ أو الصناعةَ ليسا من طريقته، حتىٰ لو شاءهما في بعض الأحيان، فإنه يعدل عن ذلك لئلّا يوصم ويُعاب، ولئلا يُغْمز في صدقه المعنويّ.

وابنُ السمَّاك في كل كَلِمِه سَمْحُ الأسلوب قريبُ اللغة، لا تعثر عنده علىٰ لفظةٍ غريبة، أو تركيبٍ معقّد؛ وهذا شأن الخطباء الكبار الذين يفهمون فلسفة ذلك الفنّ، من أنه خطابٌ إلىٰ جمهور لا يمكن أن يبحث في معنىٰ، أو أن يتوقف ليسأل عن جملةٍ من القول قد التبستْ علىٰ فَهمه، وإلا لفسد مقصد الخطيب، وضاعتْ بُغيتُه.

ولقد شهدنا صدق ابن السماك في قوله في أثر خطابه في سامعيه مما روي عنه، ما بين باكٍ أو مستعجبٍ، أو مضطربٍ مرتعشٍ، أو متأثِّر مما سمع تكاد أن تزهق نفسُه!

لقد كان لهذا البحث نتيجةٌ كبيرةٌ تمثَّلتْ في استظهار جانبٍ مهمٍّ من جوانب النثر العربي، هو جانب نصوص الوعظِ فيه –وهي نصوصٌ لم تلقَ العناية الأدبيَّة

اللائقةَ بها- عند عَلَمٍ كبيرٍ من أعلامه، هو محمد بن صَبيح المعروف بابن السَّمَّاك.

ولذلك يرجو هذا البحث أنه قد عرَّف بطرفٍ من أطراف هذا النوع، وبواحدٍ من أعلامه المذكورين في العصر العبَّاسيِّ الأول. وهو يدعو في الوقت نفسه إلىٰ فتح المجال لدراسة عشرات الأعلام المنسيِّين من أرباب هذا النوع، ولعلَّ كتابًا واحدًا ككتاب (حِلية الأولياء) لأبي نُعيم؛ أن يكون خير دليل علىٰ ما نقول، ففيه ذخيرةٌ ضخمةٌ تستحق الدراسة في البحوث الأكاديمية، لا في المقالات فحسب، بل في بحوث الماجستير والدكتوراه.

وهذا الكتاب نفسُه يحتاج إلىٰ إعادة تحقيقٍ جديدٍ، فالنسخة التي بين أيدينا منه نسخة حجريَّة قديمة، لا تليق بشأن هذا الكتاب الجليل، فهذه دعوةٌ أخرىٰ إلىٰ نشر هذا الكتاب نشرةً علميَّةً تضاهي قيمته الأدبيَّة.

***

المصادر والمراجع:

١. الآداب الشرعية، لابن مُفلح، عبد الله محمد بن مفلح المقدسي (تحقيق شعيب الأرناؤوط وعمر القيام، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٤١٩هـ).

٢. الأبعاد الصوفية في الإسلام وتاريخ التصوف، تأليف: آنا ماري شيمل (ترجمة محمد إسماعيل السيد ورضا حامد قطب، منشورات الجمل، كولونيا (ألمانيا) – بغداد ٢٠٠٦م).

٣. الأخبار الموفقيَّات، للزبير بن بكار القرشي (اختار النصوص وحققها خليل عمران المنصور، منشورات وزارة الثقافة السورية، دمشق ٢٠٠٥م).

٤. أدب الدنيا والدين، للماوردي، أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (دار الكتب العلمية، بيروت ٢٠١٧م).

٥. الأدب وفنونه: دراسة ونقد، للدكتور عز الدين إسماعيل (دار الفكر العربي، القاهرة، ط٨/ ٢٠٠٤م).

٦. أسرار البلاغة، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني (قرأه وعلّق عليه محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط١/ ١٤١٢هـ).

٧. أصول النقد الأدبي، لأحمد الشايب (مكتبة النهضة المصرية، ط١٠/ ١٩٩٤م).

٨. البداية والنهاية، لابن كثير، أبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير الدمشقي (حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٩٨٨م).

٩. بستان الواعظين ورياض السامعين،لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي (تحقيق أيمن البحيري، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط٢/ ١٤١٩هـ).

١٠. بغية الإيضاح، لعبد المتعال الصعيدي (مكتبة الآداب، القاهرة، ط١/ ٢٠١٧م).

١١. البيان والتبيين، للجاحظ، أبي عثمان عمرو بن بحر (تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت).

١٢. تاج العروس من جواهر القاموس، للزَّبيدي، محمد بن محمد بن عبد الرزّاق (تحقيق عبد الستار أحمد فراج، مطبوعات حكومة الكويت).

١٣. تاريخ الأدب العباسي، تأليف رينولد. أ. نيكلسون (ترجمة وتحقيق الدكتور صفاء خلوصي، المكتبة الأهلية، بغداد ١٩٦٧م).

١٤. تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول)، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف بمصر، ط٨).

١٥. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي. بيروت، ط١/ ١٤٠٧هـ).

١٦. تاريخ التصوف في الإسلام من البداية حتىٰ نهاية القرن الثاني، للدكتور عبد الرحمن بدوي وكالة المطبوعات، الكويت، ط١/ ١٩٧٥م).

١٧. تاريخ مدينة السلام، للخطيب البغدادي، أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت (تحقيق الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ).

١٨. تاريخ مدينة دمشق وذكر فضلها وتسمية من حلها من الأماثل، لابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الدمشقي (تحقيق عمر بن غرامة العمري، دار الفكر، بيروت ١٩٩٥م).

١٩. التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار، لابن رجب، أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (مكتبة دار البيان، دمشق، ط١/ ١٣٩٩).

٢٠. تعجيل المنفعة بزوائد رجال الأئمة الأربعة، لابن حجر، أحمد بن علي بن محمد بن حجر العسقلاني (تحقيق الدكتور إكرام الله إمداد الحق، دار البشائر، بيروت، ط١/ ١٩٩٦م).

٢١. التواضع والخمول، لابن أبي الدنيا، لأبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد الأموي القرشي (تحقيق محمد عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٩هـ).

٢٢. التوبة، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد القرشي (تحقيق مجدي السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، مصر).

٢٣. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، أبي عمر يوسف بن عبد الله بن محمد النمري القرطبي (تحقيق أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، الرياض، ط١/ ١٤١٤هـ).

٢٤. الحِجاج في الشعر العربي: بِنيتُه وأساليبه، للدكتورة سامية الدريدي (عالم الكتب الحديث، إربد، ط٢/ ٢٠١١م).

٢٥. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نُعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصفهاني (دار الفكر، بيروت ١٤١٦هـ).

٢٦. الخطابة العربية في عصرها الذهبي، للدكتور إحسان النّص (دار المعارف، القاهرة ١٩٦٣م).

٢٧. الخطابة لأرسطوطاليس (بتلخيص وشرح ابن سينا)، تحقيق الدكتور محمد سليم سالم، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ضمن سلسلة الذخائر، القاهرة ٢٠٠٩م مصورة عن ط١/ ١٩٥٤م).

٢٨. خطباء اليونان، تأليف ج. ف. دبسون (ترجمة أمين سلامة، مراجعة الدكتور محمد صقر خفاجة، مؤسسة التضامن العربي، القاهرة ١٩٦٣م).

٢٩. الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف، القاهرة).

٣٠. الزهد وصفة الزاهدين، لابن الأعرابي، أبي سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر (تحقيق مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، طنطا، ط١/ ١٤٠٨هـ).

٣١. سراج الملوك، للطرطوشي، أبي بكر محمد بن الوليد الفِهْري (حققه محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١/ ١٤١٤هـ).

٣٢. سير أعلام النبلاء، للذهبي، شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز (تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٥هـ).

٣٣. شعب الإيمان، للبيهقي، أحمد بن الحسين بن علي بن موسىٰ الخراساني (تحقيق الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، الرياض ط١/ ١٤٢٣هـ).

٣٤. صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (تحقيق دكتور مصطفىٰ ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط٣/ ١٤٠٧هـ).

٣٥. صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القُشيري النيسابوري (دار الجيل، بيروت، مصورة من طبعة إستانبول ١٣٣٤ هـ).

٣٦. صفة الصفوة، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (حققه وعلق عليه محمود فاخوري، خرَّج أحاديثه دكتور محمد رواس قلعه جي، دار المعرفة، بيروت، ط٣/ ١٤٠٥هـ).

٣٧. الصوفية في الإسلام، لرينولد نيكلسون (ترجمه وعلق عليه نور الدين شرّيبه، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢/ ٢٠٠٢م).

٣٨. طبقات الصوفية، لمحمد بن الحسين السُّلَمي (حققه وعلق عليه مصطفىٰ عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢/ ١٤٢٤هـ).

٣٩. عُدَّة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قَيِّم الجوزية، أبي عبد الله محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي (تحقيق زكريا علي يوسف، دار الكتب العلمية، بيروت).

٤٠. العزلة والانفراد، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد بن عبيد البغدادي (تحقيق مشهور حسن آل سلمان، دار الوطن، الرياض ١٤١٧ هـ).

٤١. العقد الفريد، لابن عبد ربه، أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه (دار الكتب العلمية، بيروت، ط١/ ١٤٠٤هـ).

٤٢. الفن ومذاهبه في النثر العربي، للدكتور شوقي ضيف (دار المعارف، القاهرة، ط١٥/ ٢٠٠٩م).

٤٣. في البلاغة العربية والأسلوبيات اللسانية، للدكتور سعد مصلوح (مجلس النشر العلمي، الكويت ٢٠٠٣م).

٤٤. في التصوف الإسلامي وتاريخه، لرينولد نيكلسون (ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفي، القاهرة ١٩٤٧م).

٤٥. في نظرية الحِجاج، للدكتور عبد الله صولة (مسكلياني للنشر، تونس، ط١/ ٢٠١١م).

٤٦. كتاب الصَّبر والثواب عليه، لابن أبي الدنيا، أبي بكر عبد الله بن محمد (تحقيق محمد خير رمضان يوسف، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٨هـ).

٤٧. كتاب القُصّاص والمذكرين، لابن الجوزي، أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد القرشي (تحقيق الدكتور محمد لطفي الصباغ، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٩هـ).

٤٨. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، للثَّعلبي، أبي إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (تحقيق أبي محمد علي بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١/ ١٤٢٢هـ).

٤٩. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، لابن الأثير، أبي الفتح ضياء الدين بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الموصليّ (تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة مصطفىٰ البابي الحلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ).

٥٠. المجالسة وجواهر العلم، للدِّينوري، أبي بكر أحمد بن مروان بن محمد المالكي (تحقيق أبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن حزم، بيروت ١٤١٩هـ).

٥١. مختارات من أدب العرب: قسم النثر، لأبي الحسن علي الحسني الندوي (تعليق عبد الحفيظ البلياوي، دار ابن كثير، دمشق، ط١/ ١٤٢٠هـ).

٥٢. مدخل إلىٰ التصوف الإسلامي، لأبو الوفا الغنيمي التفتازاني (دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ط٣).

٥٣. المسلمون في الهند، لأبي الحسن الندوي (دار ابن كثير، دمشق، ط١/ ١٤٢٠هـ).

٥٤. منزلة العواطف في نظريات الحجاج، للدكتور حاتم عبيد (مقالة ضمن عدد عالم الفكر المخصَّص للحجاج، مجلد٤٠، أكتوبر وديسمبر ٢٠١١م، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت).

٥٥. موسوعة البلاغة، تحرير توماس أ. سلوان (ترجمة: نخبة، إشراف وتقديم عماد عبد اللطيف، المركز القومي للترجمة، القاهرة ٢٠١٦م).

٥٦. نثر الصحابة: أغراضه وخصائصه، لمحمد شمس عُقاب (دار الأمل للنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط١/ ٢٠١٦م).

٥٧. نشأة الكتابة الفنية في الأدب العربي، للدكتور حسين نصار (مكتبة الثقافة الدينية، ط١/ ١٤٢٢هـ).

٥٨. النقد الأدبي الحديث، للدكتور محمد غنيمي هلال (دار نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٩٦م).

٥٩. وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لابن خَلِّكان، أبي العباس أحمد بن محمد بن أبي بكر (تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١/ ١٩٧١م).

❊ ❊ ❊